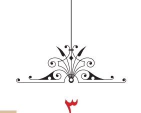

حُسنُ الظَّنّ بالله
د. إياد قنيبي



مقدمة

كيف يمكنك -أنت- أن تَقلب المحنة إلى منحة ؟

كيف تستمتعُ بنعمة البلاء؟

كيف يمكنك أن تعيش بسعادة مهما كانت الظروف ؟

كيف يمكنك التعامل مع الأمور -أيًّا كانت- بإيجابية واستبشار؟

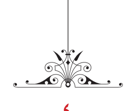
كيف تعلق قلبك بالله -عز وجل- فلا تخاف سواه ولا ترجو سواه ؟

كيف تمتلك عزيمة لا تنكسر، وروحًا لا تُقهر؟

كيف تُطهّر قلبك من العتب على القدر؛ فيصير قلبك قلبًا سليمًا تحب أن تلقى الله عز وجل به ؟

كيف تحب ربك -سبحانه وتعالى- حبًّا غير مشروط لا يتأثر بالظروف ؟

الإجابات عن هذه الأسئلة -والكثيرِ غيرها- ستجدها في هذا الكتاب..



الله سبحانه وتعالى.. خالقنا ورازقنا وحبيبنا، وسعت رحمته كل شيء .

خلق عباده ليعبدوه -ليطيعوه ويحبوه.

خلقهم وتودد إليهم بالعطايا والنعم.. فهو الودود سبحانه..

خلقهم وعمّهم برحمته فهو الرحيم..

خلقهم فلطف بهم وحلم عنهم على الرغم من أخطائهم.. فهو اللطيف الحليم..

يحب أن يسمع صوت عبده المؤمن بالشكر في السراء، والتضرع في الضراء..

فإن غفل العبد عن ربه ابتلاه.. ليرده إليه فيسمع تضرعه ودعاءه وبكاءه.

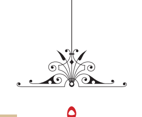
وهو في ابتلائه رحيم حكيم.

مررتُ بظروف صعبة.. لكن الله وفقني إلى إحسان الظن به تعالى وبحكمته ورحمته. فكان الله تعالى عند ظني وحوّل نار البلاء بردًا وسلامًا. كيف لا وهو تعالى القائل في الحديث القدسي: ((أنا عند ظن عبدي بي)) (رواه البخاري)..

وإي والله، عندما تظن بربك خيرًا وتعمل عَمَلَ من هذا ظنُّه.. ترى منه الخير كله.

إذا أيقنت أن الله تعالى قادر على أن يقذف في قلبك السعادة والرضا والطمأنينة مهما كانت الظروف فإنه تعالى سيكون عند ظنك به.. فهو وحده القادر على إسعاد الإنسان وإشقائه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

نعم، أنعم الله عز وجل عليَّ من خلال البلاء بنعم كثيرة جدًّا. كنت أكتب هذه المنح التي أكتشفها على ورقة على شكل نقاط.. كم كنت أستمتع وأنا أكتبها ثم أراجعها وأتأملها! وبعدما فرج الله عني اكتشفت



هدايا عظيمة غيرها.

فوجدتُ من العرفان والامتنان لربي الرحمن أن أحدث إخواني وأخواتي عن شيء من هذه النعم الكثيرة، حتى نتعلم معًا فنَّ (إحسان الظن بالله عز وجل)..

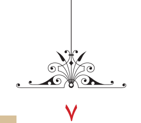
﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]. وكل ما ستجدونه في هذا الكتاب هو بسطٌ لبضعة نقاط فقط من النقاط الكثيرة التي أحصيتها.

إخواني وأخواتي، انظروا إلى حسن ظن أهل الكهف بربهم عندما قالوا: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦].. (الكهف).. مكان مظلم موحش بعيد طريقه وعرة فيه الحشرات وربما العقارب والحيات.. لا ماء ولا خضراء.. لكن قدرة الله تعالى تقلبه شيئًا آخر: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ [الكهف: ١٦].. حوَّل الله عز وجل -بقدرته ورحمته- الكهف مكانًا للأنس والرفق والرحمة واليسر.

يا إخوتي.. والله إن ربكم تعالى كريم.. كريم.. فتعالوا نتعرف على ربنا من خلال أفعاله بعباده لنرى عظمة الرب الذي نعبده.. تعالوا نتعرف على الله تعالى لنحسن الظن به مهما قدر علينا وفعل بنا.. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ [النساء: ١٩] ..

تعالوا نأنس بالله ونأوي إلى كنفه ونحيي قلوبنا ونعطر مجالسنا بذكره.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب ويزيد به حبنا له سبحانه.



كيف تتخلص من الخوف من المجهول؟

تصور معي: أنه جاءتك هدايا، وأنت تعرف أنها هدايا عظيمة وقيمة، لكن بعض هذه الهدايا جاء في غلاف جميل وبراق، والبعض الآخر جاء في غلاف قبيح، هل يهمك كثيرًا شكل الأغلفة إذا علمت أن الهدايا التي في الداخل هدايا ثمينة وقيمة وعظيمة؟

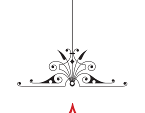
كذلك إذا علمت أن كل ما سيحصل في المستقبل بمقدورك أن تجعله لمصلحتك، فلن يهمك كثيرًا أن يكون في غلاف محنةٍ أو في غلاف منحة، فأنت من يقرر ما سيكون عليه.

لماذا يخاف الناس عادة ويقلقون؟ لأن المستقبل مجهول بالنسبة لهم.
هذا الخوف ينغص على أهل الدنيا سعادتهم مهما كان عندهم من نعيم الدنيا لأنهم يخشون أن يزول هذا النعيم وتتبدل الأحوال.

فصاحب المال قد يفتقر.. صاحب الصحة قد يمرض مرضًا مزمنًا.. الطليق قد يُحبس.. الآمن قد يُروَّع.. المحب لإنسان حبًّا شديدًا قد يموت حبيبه.

إذن.. أتريد أن تعرف كيف تتخلص من الخوف من مجهول المستقبل؟
ببساطة: اتخذ قرارًا بالرضا عن فعل الله سبحانه بك مهما كان.

لاحظ: الرضا يقع بعد الحدث، وهو نتاج أشياء تفعلها قبل الحدث فيأتيك الرضا في وقت حاجته.. لذلك كثيرًا ما يُطرح التساؤل: (الرضا



من أفعال القلوب التي لا يملك الإنسان إيقاعها، ومع ذلك فهو مطلوب منه.. كيف؟!).

والجواب أن الذي تستطيعه هو توطين نفسك على الرضا، والعمل بطاعة الله بحيث يرزقك الرضا عند حاجتك إليه.

كلما جاءك هاجس الخوف من المجهول جدد العهد والوعد بأن ترضى وتكون شاكرًا صابرًا.. وثِق في معونة الله لك.

إذا فعلت ذلك فلن تخاف من المستقبل لأنه ما عاد مجهولًا، بل أصبح صفحة مكشوفة لك! كيف؟ ببساطة، أنت الآن بعد اتخاذ هذا القرار فإنك على يقين بأن كل ما يحصل هو خير لك. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم:

(عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له)

(رواه مسلم).

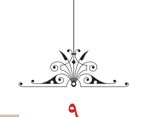
إذن فبعد أن تتخذ قرارًا بالشكر في السراء والصبر في الضراء لا تقل: (لا أدري إن كان المستقبل يحمل لي خيرًا أم شرًا). فبِنَصّ كلام النبي صلى الله عليه وسلم المستقبل لا يحمل لك في هذه الحالة إلا خيرًا.

الجميل في الأمر هنا أن المسألة لم تعد في حسّك أقدارًا مجهولة تتقاذفك في وديان الضياع..

لم يعد مُهِمًّا ظواهر الأمور: فقر أم غنى، صحة أم مرض، بقاء الأحباب أم وفاتهم..

أنت! أنت من سيجعل هذا كله يؤول إلى مصلحتك وخيرك بإذن الله.. ما عليك إلا اتخاذ قرار الشكر والصبر.

لا تقل (حتى لو اتخذت قرارًا بالرضا والصبر، قد يُقَدِّر الله عليَّ ألا



أصبر)، بل تذكر أن الله سبحانه قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن: ١١].. هذه الآية تحمل معانٍ عظيمة، منها أن الذي يُسَلِّم أمره لله سبحانه مؤمنًا به حقًّا فإن الله تعالى سيهدي قلبه ويثبته ويعينه. فالرضا والصبر آثار لامتلاء القلب بالإيمان بالله تعالى والتسليم له.

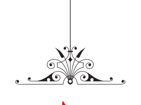
أيضًا يعالج لك هذا الخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: (ومن يتصبَّرْ يُصبِّرْه اللهُ) (رواه مسلم).

إذن بادر أنت واتخذ القرار ولا تقل قد يُقدر الله علي بعد ذلك ألا أصبر. فالله أحلم من ذلك وأرحم. وقد جعل سبحانه للصبر عُدَّةً وأسبابًا من لازَمها أمدَّه ربه بالصبر والسكينة والطمأنينة، فَبِعَمَلِكَ تستمد التصبير من الله، وليس هذا خارجًا عن مقدورك.

قد تقول: (أحاول أن أتخذ القرار بالرضا، لكني أحس بعدم الصدق في ذلك لأني أخاف أن يكون البلاء شديدًا لا يمكنني تحمله). سنتعاون على التخلص من هذا الخوف أيضا عندما نتأمل شيئاً من حكمته وإعانته في صفحات قادمة بإذن الله.

قد تقول: أنا الآن أستطيع اتخاذ القرار لأني أحب الله تعالى. لكن إذا ابتلاني ابتلاءً عظيمًا فأخشى أن تتأثر هذه المحبة.. سنتعاون أيضا إن شاء الله على إعادة بناء محبتنا لله تعالى على أسس سليمة كي نطمئن إلى معيته ومعونته مهما كانت الظروف.

المطلوب منك الآن أن تثق وتؤمن وتوقن بحكمة الله ورحمته، فتتخذ القرار بالرضا، والمقصود بالرضا: الرضا الكامل التام الذي لا تشوبه



شائبة، المنافي للتسخط على الله سبحانه والاعتراض على حكمته وأفعاله، وليس المقصود هنا عدم التأثر بما يقع عليك من مكروه أو محبة ذلك المكروه. فهذا منافٍ لفطرة الإنسان، فمن ابتلي بموت عزيز عليه فمن الطبيعي أن يحزن ويتألم، ولكنه لا يتسخط على القدر ويعترض على ربه سبحانه بمثل (لماذا أبتلى أنا) و(ماذا فعلت حتى يقع لي ذلك)، على سبيل الاعتراض! بل يحمد ربه سبحانه ويصبر، فينال الأجر والثواب مع لذة الرضا والطمأنينة.. وقد كان من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم: (وأسألك الرِّضاءَ بعد القضاء) (رواه النسائي وصححه الألباني).

المطلوب منك عندما تضع رأسك لتنام وتقول الدعاء الذي علَّمَنا إياه نبيُّنا: ((اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك)). أن تقولها بيقين مطلق وتسليم تام، لتكون مشمولًا بالخطاب الذي وجهه الرحمن الرحيم إلى نبيه حيث قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]. أي: لا تخف، أنت في حفظنا ورعايتنا يكتنفك حلمنا ولطفنا.

خلاصة هذه المحطة:

اتخذ قرارًا بالرضا عن ربك في كل أمر،

لتتخلص من الخوف من المجهول إلى الأبد بإذن الله.



حين تعلم أن الله يريد بك خيرًا!

والله يا إخواني لا أظن أن هناك شعورًا أجمل من هذا تعيش به في حياتك! الشعور بأن الله يريد بك خيرًا مهما قدر عليك وفعل بك.. فكله لمصلحتك.. وقد لا تستيقن من هذا الشعور إلا من خلال البلايا!

وأنت في عافية من أمرك غير مبتلى، تعيش حياة شبه كاملة.. قد ينعم الله عليك بالنعم الدنيوية كلها.. فتسأل نفسك: (هل هذا من عاجل إنعام الله علي، مع ما ادخر لي من نِعَمٍ في الآخرة؟ أم أنه استدراج، يوفيني الله حسابي في الدنيا ويعاقبني في الآخرة على تقصيري؟) وقد يكون هذا الشك مقلقًا بالنسبة لك.

فإذا ابتُليتَ ورأيتَ علامات أن الله أراد بك في هذا البلاء خيرًا، ملَأَتْكَ البهجة وقلتَ لنفسك: (لقد قصَّرتُ في حقه تعالى لكنه الحليم.. يعاملني بحلمه وكرمه لا بما أستحقه. أراد بي خيرًا لا لأني أستحق منه ذلك كله ولكن لأنه أهل المغفرة واللطف والحلم والرحمة والكرم).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه:
كيف أعرف إن كان الله يريد بي خيرًا أم لا؟
هل يا ترى بكمال الصحة وكثرة المال والأمن من المصائب الدنيوية؟

لا.. أبدًا! هذا كله ليس دليلًا على إكرام الله لك ولا على أنه أراد بك خيرًا. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥،١٦].. يعني كثير من الناس يَعتبر أن إعطاء الله له من نِعَمِ الدنيا

دليل على محبة الله له ورضاه عنه وأن له كرامة عند الله. بينما إذا ابتلاه بالفقر يعتبر ذلك دلالة على إهانة الله له وأن الله أراد به شرًا. إذن يعتبر الإعطاء والمنع من نعيم الدنيا مقياس رضا الله وسخطه على العبد، محبته وكراهيته للعبد.. إرادته الخير أو الشر بالعبد. فجاء الرد من الله تعالى على هذه النظرة بكلمة: ﴿كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٧].. أي ليس العطاء والمنع من الدنيا هو المقياس.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ [الإسراء: ١٨].. ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ﴾.. المؤمنين والكافرين، الأبرار والفجار.. الكل ينال نصيبه من عطاء ربك في الدنيا.. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

إذن ما هو المقياس لتعرف إن كان الله يريد بك خيرًا؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحب)) قال أحمد شاكر في عمدة التفسير: إسناده صحيح)

نعم! إذن الإيمان هو المقياس..

فإن وجدت البلاء قد قَرَّبَك إلى الله، فاعلم أنه سبحانه أراد بك خيرًا..
وإن وجدت البلاء أبعدك عنه سبحانه فالحذر الحذر! تداركْ نفسَك قبل أن تكون من المحجوبين.

إذا وجدت نفسك تُبتلى بما لم يكن في حسابك، ومع ذلك يُنزل الله عليك السكينة.. فقد أراد بك خيرًا.



إذا وفقك الله لإحسان الظن به، وعَصَمَك من العتب على أقداره.. فقد أراد بك خيرًا.

إذا مرَّت بك لحظات في بلائك تعيش فيها مع القرآن بسعادة رغم كل شيء وتدمع عيناك من محبة الله والامتنان له.. فقد أراد بك خيرًا.

إذا صَغُرَتْ في عينك تهديدات المخلوقين وعلمت أنهم عبيد مقهورون تحت سلطان الجبار القهار سبحانه، فلم تعد ترجو خيرًا إلا منه تعالى ولا تخاف إلا منه تعالى.. فهذا كله دلالة على أن الله تعالى أراد بك خيرًا.

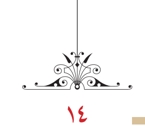
إذا وفقك الله إلى أن تستغل وقتك في بلائك فيما ينفعك في دينك ويقربك من ربك، بينما كثير من الناس يظهرون أحرارًا معافَين، إلا أنهم محبوسون في أهوائهم وأوهامهم وشهواتهم وشكوكهم ومرضى بها!.. فإنه تعالى ما اختارك من بينهم لخدمة دينه إلا لأنه أراد بك خيرًا.

إذا سبَحَتْ روحك في ملكوت الله وطافت تحت العرش مع أن جسمك وراء القضبان أو أثقله مرضٌ.. فإنه تعالى ما تركها تحلق وتتحرر إلا لأنه أراد بك خيرًا.

فالسكينة، والرضا والصبر والامتنان لله والعرفان له بالجميل وتعلق القلب به وعدم الخوف والرجاء إلا منه والأنس به وخدمة دينه.. هذه كلها من معالم الإيمان.. لا يعطيها تعالى إلا لمن أحب.. فإن أعطاك إياها فاعلم أنه أراد بك خيرًا.

فهل من المعقول أنه يبتليك ويرضيك لأنه يريد بك شرًا؟! لا والله! بل ما صبرك ورضاك بالقدر إلا لأنه يريد بك خيرًا..

أخي، أختي.. أنت من تختار لنفسك: إن كنت عندما تبتلى تنشغل بطاعة الله ولا تنطق شفتاك إلا بحمده والرضا عن قضائه فالله قد أراد بك خيرًا.. وحينئذ ستحقق السلام الداخلي مع نفسك، والسلام مع الله تعالى.



وإن كنت -لا قدّر الله- تسخط أو تعتب على القدر أو تنشغل بالأحزان والمخاوف والتوجس من المستقبل والتشكك في حكمة الله والعياذ بالله.. فقد اخترت الطريق الخطأ. قال ابن القيم: (من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل، وبأي شغل يشغله).

وأنت كذلك.. انظر بماذا يشغلك الله وفي أي عمل يستعملك لتعرف قدرك عنده وإن كان قد أراد بك خيرًا أم لا. فإن رأيت من نفسك ما لا يسر فسارع إلى التوبة.. فإن وُفِّقت إليها فاعلم أن الله قد أراد بك خيرًا.

ما أجمل أن تعيش بشعور أن الله يحبك !

حين تتخذ القرار بالرضا، ستلمس أن الله تعالى يحبك، لأنه سبحانه كما في الحديث الذي ذكرناه: ((لا يعطي الإيمان إلا لمن أحب)). فالرضا إيمان، إن حُزْتَه فإن هذا من علامات محبة الله لك.

انظر حينئذٍ كيف ستنظر بإيجابية إلى ما يقضيه الله تعالى لك.. فالذي يقضي هذه الأمور حُلوَها ومُرَّها هو حبيبك الذي يحبك: الله سبحانه وتعالى.

فإن قضى لك بالمرض فإنما يأتيك هذا القضاء ممن يحبك، ولا تعارُض.. وإن قضى لك بوفاة عزيزٍ عليك فإنما يأتيك هذا القضاء ممن يحبك كذلك.

لكن العبد المؤمن لا بد له من الخوف مع الرجاء.. فكيف يطمَئِنُّ إلى أن هذه البلايا ليست علامات مقتٍ من الله؟

إنَّ ردة فعلك عند البلاء هي التي تحدد: فإن أقبلت على الله سبحانه ورضيت وصبرت، فإنك تستديم هذه المحبة التي ظهرت لك أماراتها من قبلُ وتزداد بها وثوقًا. ويكون حرصك على استدامتها والأُنسِ بطُمأنينتها معيناً لك على هذا الصبر والرضا. لكن إن بادرتَها بالتسخط فلا تنال إلا السخط! فاجعل خوفك من تضييع الود الذي بينك وبين الله، والوقوع من ثَمَّ في الوحشة.. اجعل خوفك هذا حاجزًا لك عن السخط.

في إحدى زيارات شقيقتي لي في السجن قالت لي أنها لمست في الزيارة السابقة مني فتورًا وحزنًا. فقالت لي أريدك أن تكون قويًّا كما عودتنا وألا تفتر أو تخاف. فرددت عليها بقصيدة بعنوان (مَنْ المَسجون؟!) أجسد فيها بعض المعاني السابقة:

جاءتْني أختيَ في سِجني ... تَزدانُ ثباتًا وَوَقارا
قالتْ قد جئتُكَ ناصحةً ... لأزيدَ بعزمِكَ إصرارا
إياكَ فلا تَيأسْ مَللًا ... واصبر وامتَلِئ اسْتبشارا
لنْ ترقى في درجاتِ المجدِ ... إذا لم تلعقْ صَبَّارا
أَأُخَيَّةُ لا تَخْشَيْ شيئًا ... فَشَقيقُكِ يعْرفُ ما اختارا
لا بد لمن قد حمل الدعوة ... أن يتحمل أضرارا
ما كان الله ليَتْرُكَنا ... حتى نَتَمَيَّزَ أبرارا
ويسوقَ إلى دركاتِ جهنمَ ... من قد نافق وتمارى

إن كنتُ لَفي عَيْشٍ رَغَدٍ ... لا أخشى فيه الأكدارا
مُمْتَلِئَ الجَيْبِ كثيرَ الصَّحبْ ... حُرًّا أَتَنَقَّلُ أسفارا

ورُزِقْتُ قُبيل السجن بتَوْأَمَتَيْنِ اسْتَبَتَا الأنظارا

وإذا بي لا أُبصِر حولي   إلا قُضبانًا وجدارا

وأساقُ وقيدٌ في رِجْليَّ لألقَى حكمًا جَوَّارا

والتهمةُ أني قد ساعدتُ رفاقَ المِلَّةِ إيثارا

إنْ نِمْتُ حلِمْتُ بأطفالي   وذكرتُ إيابيَ والدارا

لو كان عنائيَ للدنيا   لَلَقِيتِ شَقِيقَكِ خوَّارا

لكني أرجو مِن صبري   في قُربِ الرحمن جِوارا

ولأَشْرَبَ كأسًا مِن كافورْ   أو عسلًا يجري أنهارا

وأُلَبِّيَ ما قد أمرَ الربُّ عبادهُ: كونوا أنصارا

مسجونٌ لكنْ في صدري   بستانٌ يزْخَرُ أزهارا

أقرأُ و أُدوِّنُ أفكارا   وأقومُ أُصلي الأسحارا

أَتَدَبَّرُ إذْ أتلو القرآنَ لِكَيْ أكتشفَ الأسرارا

وأُؤَلِّفُ في أسبابِ الصبرِ ليرْضَى الناسُ الأقدارا

وتُحَلِّقُ روحيَ آخذةً   مِن حُبّ الرحمن مدارا

أتزودُ في سِجني التقوى   وعدوّي يحملُ أوزارا

كم من أحرارٍ أُبْصِرُهُمْ   كَسُكارى، ما هُمْ بِسُكارى

لكنْ قد دَرَجوا أنْ يَهِنوا   ذُلًّا ويعيشوا أصْفارا

وبِجِدٍّ عبدوا الدينارا   قد هجروا الدينَ اسِتهْتَارا

إنْ غَضِبوا ليسَ لأجْلِ اللهْ   لكنْ ما اسْتَغْلَوا أسعارا

وَلِنـــارِ جَـهَـنَّـــمَ مـــا اهـتـمـُّـوا   لــكنْ أنْ يَـجِـــدوا الســـــولارا
بَـــدَلًا مــن كُــرة الأرضِ قَـفَــوْا   كـــرةً لِفَـــريقٍ يتـــبـــارى
فَــمَـــنِ المسجـــونُ أنـا أمْ هُـــمْ   إنْ زدنـــا الأمـــــرَ استبـصــارا

أَأُخـــــيَّةُ لا تخشَـــيْ شـــيـــئًا   فَشَـقــيقُــكِ لــمْ يـفـعل عــارا
هـــل عــــارٌ أنْ نَــــدْفـــعَ إنْ دُنِّـــــسَ عِـــــرْضُ الأُمَّـــــةِ وَنَغَـــــارا
لـمَّـــا أَسْـرَرْنـــا الإنـكـــارا   وخَـشِـيـنـا بَطْـشًا وإســـارا
لَـمْ نُـعْـطِ النَّـــشْءَ بأُمَّـتِـنـــا   قُـــدُواتٍ تَمْتَلِــئُ فـخـــارا
فاتَّخَـــذوا رَمْـــزَ بطولتــهم   مَــنْ جَـحَــــد الله كجـيـفارا
أيليـــقُ بنـــا أتـبـــاعَ محـمــــــدَ أنْ نَـتَـمَـثَّـــلَ جيـفـــارا
مَـــنْ عَـبــــدَ الله الـقَـهَّـارَ   مـــا كــان يُــجـــاري التيّـــارا
مــــنْ طَـلَــبَ العـــــزةَ عنــد ســــوى الرحمـــنِ يُبَوِّئْـهُ خَـسـارا
فَلِبَـيْـــتِ عنـاكبَ قَـدْ لَجَـــؤُوا   بِدَمــــارٍ يَـرْجـــون عمــــارا

أَرَأَيْـــتِ لــتُـــونُسَ إذْ حــاربَ   مُجـرمــــها الرحمـــنَ جِهــارا[1]
فَيُـطـــارِدُ كــلَّ محــجّــبــةٍ   مِـنْ أجْـلِ استرْضـاءِ نـصـارى
يَتَــمـــنَّى لـــو كــان بأســفـلِ   أحــذيـــةِ الـكـفّـــار غبـــارا
ولِرُبـــع القـــرن يـــواليـــهمْ   يــرجـــو فـــي الحكمِ استـقرارا
إنْ دخـــلوا جُـحْــرَ الضَّــبِّ دخـلْ   يتــمــلـــقُ ذُلًّا وَصَـــغارا

---

(١) كتبت القصيدة أول عام ٢٠١١ بعد أحداث تونس وفرار (زين العابدين بن علي) منها.



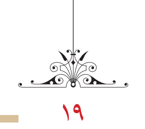
أَأُخـــَيَّةُ لا تـخـشَـيْ شيــئًا   فَأخــوكِ تَـوَلَّـــى الجــبّـــارا
واللهُ يـــدافـــعُ عـنّـــا إذْ   قَـــدْ وعـــدَ الفُـجَّـــارَ تَبـــارا

خلاصة هذه المحطة:

اصبر في بلائك،

وأحسن الظن بربك وبحكمته ورحمته..

فإن نجحت في ذلك فاعلم أن الله أراد بك خيرًا.



لا تكن حبشرطيًّا!

ما رأيك في الطائفة التالية:

إنها طائفة من أبناء المسلمين اسمها (الطائفة الحبشرطية)..

ماذا تقول هذه الطائفة عن الله -عز وجل- في قاموسها؟ تقول: "الله -سبحانه وتعالى- هو الذي فرض علينا الوجود في هذه الحياة الدنيا، وفرض علينا واجبات، منعنا من محرمات، وبيده إسعادنا أو إشقاؤنا. ولكن نفوسنا تستثقل بعض الواجبات وتهوى بعض المحرمات، لذا فإن علينا أن نتعامل مع الله بموازنة، بحيث نفعل من الواجباتِ المقدارَ الذي يضمن استمرار نِعَم الله علينا مع أقل قدر من الثقل في نفوسنا، ونفعل -أيضًا- من المحرمات بالمقدار الذي يحقق رغباتنا لكن دون تعريضنا لقطع نِعَم الله أو نزول عقابه".

تُرى، هل تعريف الطائفة الحبشرطية لعلاقة الإنسان بربه تعريف سليم؟

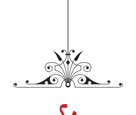
هل هكذا ينبغي أن يُسلم نفسه وعاطفته لله رب العالمين؟

هل عرفتم من هي الطائفة الحبشرطية؟

إنها في الواقع كثير من جموع العالم الإسلامي، لا يقولون ذلك بألسنتهم، لكن لسان الحال أبلغ من لسان المقال!

بل لعلك -وأنت تقرأ هذه الكلمات- ستجد نفسك منتسبًا ضمنياً إلى هذه الطائفة!

إن هناك صفاتٍ في نفوسنا تبدو خطورتها عندما نشخصها ونعبر عنها بعبارات لا مجاملة ولا مداهنة فيها.. قد نستنكرها ونستغربها لكن الحقيقة المرة أنها موجودة في نفوسنا وبدرجات متباينة. لذا، دعونا نتعمق في تحليل النفسية الحبشرطية؛ لنرى إن كانت مختبئة في



ثنايانا، ولأيـة درجـة؟

إن الحبشـرطي يتذاكـى ويجـري التجـارب في تعامـلـه مـع ربـه سـبحانه و تعـالى!.. يحـاول أن يصـل إلى "نقطـة الموازنـة" الـتي يشـبع فيهـا رغباتـه دون أن تُقطـع عنـه النعـم الدنيويـة.

إذا ضم إلى حياته وأدخل في "مُكتسباته" معصية و أمرًا مما حرم الله، فإنه يترقب: فإنْ استمرت نعم الله ولم ينزل العقاب فإنه يستنتج أنه ما زال ضمن نقطة الموازنة، ويعتبر هذا المحرم أحد المكتسبات! أشبع رغبته دون قطع النعمة.

وأما إذا أدت هذه المعصية إلى قطع نعمة من النعم أو نزول عقاب، فإنه يستنتج أنه قد تجاوز نقطة الموازنة، فيعود أدراجه ليتخلص من المحرم، ويعلن حالة الاستنفار القصوى: دعاء، بكاء، تضرع، اجتهاد، طاعات.. لماذا؟ لأنه يريد عودة النعم ودفع النقم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].. إذن: دعانا لجنبه أو قـاعـدًا أو قائمًا.. دعـاء مـن يريـد عـودة النعـم.. ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت].. ذو دعـاء عريـض.. دعـاء مـن يريـد عـودة النعـم.

والمصيبـة أن نفسـية الحبشـرطي "تتبرمـج" مـع مـرور الزمـن علـى هـذه "الموازنـة" بحيـث يسـتقر في حسـه أن النعـم الـتي هـو فيهـا مـن "حَقِّـه" وأنـه أهـلٌ لهـا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠].. يعـني أنـا أسـتحق هـذه الرحمـة، أسـتحق هـذه النعـم.

وفقـاً لهـذه «الموازنـة» فـإن الحبشـرطي يحـب الله تعـالى طالمـا أنـه يمكـن



استمرار نِعَمِهِ ودفع نقمه -في نظره- بهذه «الموازنة» والمد والجزر، لذلك سمّيناه (الحبشرطي) أي: أنه يحب الله -عز وجل- حبًّا مشروطًا، مشروطًا باستمرار النعم، مشروطًا باستمرار المصالح الدنيوية خاصة؛ فإن نفسية الحبشرطي قلّما تتذكر الآخرة!

تصور معي الآن ماذا يحصل إن أذنب الحبشرطي ذنبا فابتلاه الله تعالى بما يكره، فتخلص الحبشرطي من هذا الذنب كالعادة وأعلن حالة الاستنفار القصوى: تضرُّع، دعاء، استغفار، طاعات.. لكن الله عز وجل شاء أن يستمر البلاء ويشتد.

سوف يعتمل في نفسية الحبشرطي تساؤل: (لقد أديت ما عليّ أن أفعله، فلماذا لم يفعل الله تعالى المتوقع منه؟)

وفقًا لعادة «الموازنة» التي تكرست في نفسية الحبشرطي فإن من «حقه» عندما يتخلص من المعصية ويجتهد في الطاعات أن يُرفع البلاء ويعود «المصروف» اليومي الذي يأخذه من الله -عز وجل-. فإذا حصل خلاف المتوقع فإن محبته المشروطة لله -عز وجل- سوف تنهار! ولا عجب أن تنهار لأنها أسست على شفا جرفٍ هارٍ، وانبنت على فهم متشوه لعلاقة الإنسان بربه سبحانه وتعالى.

إذًا على أي شيء نبني حبنا لله عز وجل حتى لا ينهار هذا الحب في أية لحظة من لحظات حياتنا؟

هذا ما سوف نعرفه في المحطة القادمة بإذن الله.

خلاصة هذه المحطة:

انظر في نفسك إن كنت حبشرطيًّا

تشرط محبتك لله باستمرار النعم الدنيوية.



ابن حبك لله على أسس سليمة

ذكرنا في المحطة السابقة أن (الحبشرطي) يشرِطُ محبته لله عز وجل باستمرار النعم الدنيوية.

إذن؛ هو يؤسس هذا البيت -يعني (محبة الله)- يؤسسه على أسس..

هذه الأسس هي: المال، الصحة، الحرية، الاستقرار الأسري، المكانة الاجتماعية.

لكن، لاحظ معي:

هذه الأسس الدنيوية جميعها.. أليست قابلة للزوال؟

أليس هذا (الحبشرطي) مهددا في أي لحظة:

بالفقر= زوال المال

بالمرض= زوال الصحة

بالحبس= زوال الحرية

بالمشاكل = زوال الاستقرار

ماذا سيحصل حينئذٍ إذا ابتُلي بفقد أحد هذه الأسس؟

سوف يميل البيت ويسقط وينهار.

سوف تنهار محبة الله المشروطة في قلب هذا العبد الحبشرطي! لأنه أسسها على أسس قابلة للزوال في أية لحظة.

إذن؛ كيف أعرف إن كانت محبتي لله عز وجل مهددة بالزوال في أية لحظة؟

كيف أعرف إن كنت قد أسستها على أسس دنيوية؟

حقيقةً، البلاءُ يساعدك في ذلك جدًّا، وهذه من نعم الله عليك في البلاء.

عندما تُبتلى وتدعو الله عز وجل وتطلب منه أن يرفع عنك البلاء ويعيد لك النعم، قد يقدر الله عليك أن يستمر بلاؤك ويطول ويشتد، وحينئذٍ سوف تعرف إن كان حبك لله مشروطًا بهذه المصالح الدنيوية.

واجهـتُ محنـةً حُرِمْـتُ فيهـا فجـأةً مـن: حريـتي، أهلـي، أولادي، أصدقـائي، مـالي، وظيفـتي.. فجـأةً!

ثم دعوتُ الله لكنه قدر أنه يستمر بلائي أطول مما ظننت.

هذا وضعني حقيقةً أمام السؤال المهم:

الآن، وبعد حرماني من هذه الأشياء، هل ما زلتُ أحب الله عز جل؟

هـذا السـؤال سـاعدني في تـشخيص مقـدار (الحبشـرطية) في نفـسي؛ لأعيـد بنـاء محبـة الله علـى الأسـس السـليمة الصحيحـة.

أسـألك بـالله: هـل أنـت مسـتعد أن تشـتري بيتـا لتسـكنه إذا علمـت أن هـذا البيـت مرتكـز علـى أسـس واهيـة قابلـة للانهيـار والـزوال في أيـة لحظـة؟

فما ظنك بمحبة الله عز وجل التي من أجلها نعيش، بل من أجلها خلقنا؟

فَرَبُّنا خلقنا لنعبده، والعبادة محبة وتعظيم وطاعة.

فهـل أنـت مسـتعد أن تغامـر بمحبـة الله عـز وجـل، وتبنيهـا علـى أسـس قابلـة للـزوال في أيـة لحظـة؟

إذًا، لابد لك أن تبني محبة الله في قلبك على أسس صحيحة.

تُرى، ما هي هذه الأسس؟

كثيرة.. منها:

١. اليقـين باسـتحقاق الله سـبحانه للعبـادة لذاتـه العظيمـة، والتفكـرُ في أسـماء الله وصفاتـه وتأمُّـل آثارهـا في الواقـع. وهـذا هـو الأسـاس الأعظـم في بنـاء المحبـة لله.

٢. تعلق القلب بالآخرة ونعيمها.

٣. العرفان لله بنعمة الهداية.

٤. الامتنـان لله بمـا أنعـم عليـك في المـاضي بغـض النظـر عـن الحاضـر والمسـتقبل.

٥. اسـتحضار أن نعـم الله عليـك لا تعـد ولا تحـصى مهمـا نـزل بـك مـن بـلاء ومصيبـة ومهمـا فقـدت، فـلا زلـت مغمـورًا في فضلـه لكنـك أَلِفْـتَ نعمـه



التي أنت فيها الآن حتى لم تعد تحس بها.

٦. تأمُّلُ محطات رحمة الله بك، صرفه للشرور عنك، تهيئة أسباب هدايتك، سَتره عليك، إحاطته إياك بأناسٍ يحبونك وكلُّ ما كان منهم من خيرٍ فمن الله.. تأمل ذلك في محطات حياتك..

- أنا عن نفسي استعرضتُها تباعًا في جوف بلاء، وتَلَوْتُ معها سورة (الضحى)، فأحدثت لي لذة وطمأنينة وشعورًا بمعيَّة الله لي وأنه سبحانه يريد بي خيرًا.

٧. ما ينعم الله به عليك، إن أقبلت عليه، من أعمال القلوب مهما كانت الظروف، كالرضا والشوق إلى الله والأنس بالله وكلامه (القرآن).

وسنتكلم بإذن الله عن بعضٍ من هذه الأسس في محطاتٍ قادمة.

إذًا، هذه أشياء ثابتة لا تزول: أسماء الله وصفاته، الآخرة المرتقبة، نعم الماضي، حقيقة أنك ستبقى مغمورًا في نعم الله مهما أخذ منك.. هذه أشياء لا تتغير، ليست مهددة بالزوال.. تبني عليها محبتك لله وأنت واثق مطمئن.

أما ما يستجدُّ لك -في الحاضر والمستقبل- من نعمٍ جديدةٍ ورفعِ بلاء؛ فهذه كلها تزيد محبتك لله عز وجل، ولكنها ليست شرطًا في وجود هذه المحبة.

قد يقال: لكن الله عز وجل شَرَع تألف قلوب الناس بإعطائهم شيئاً من نعيم الدنيا. فمعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قسمًا كبيرًا من الغنائم للمؤلفة قلوبهم، لكفارٍ يريد رسول الله أن يستميلهم للإسلام، بل إن مصرفًا من مصارف الزكاة هو (المؤلفة قلوبهم)؟

صحيح.. لكن هذا التألف لقلوب الناس بنعيم دنيوي هو مرحلي مؤقت؛ حتى ينهار الحاجز النفسي بين قلب الغافل والإسلام، حتى تُزال الغشاوة عن بصره ليرى حقيقة الدين فتخالط بشاشة الإيمان قلبه، فلا يعود

يأبه -من ثَم- أُعطي أو مُنع.

في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أنس قال: (إنْ كانَ الرَّجلُ ليُسلِمُ ما يُريدُ إلَّا الدُّنيا، فَما يُسلِمُ حتَّى يَكونَ الإسلامُ أَحبَّ إليه منَ الدُّنيا وَما عَليها).

(إنْ كانَ الرَّجلُ ليُسلِمُ ما يُريدُ إلَّا الدُّنيا): يعني حبشرطي صرف! وإنما يُظهر الإسلام لإرادته الدنيا..

(فما يسلم): يعني فَما يَلبَثُ بَعدَ إسلامِه إلَّا قَليلًا حتَّى يَنشرِحَ صَدرُه بحَقيقَةِ الإيمانِ ويَتمكَّنَ مِن قَلبِه فيَكونَ حينئِذٍ أَحبَّ إليه منَ الدُّنيا.

إذن؛ تحولَ حبه لله إلى حب حقيقي مبني على أسس سليمة.

أما أن يعيش الإنسان حياته كلها عِيشة المؤلفة قلوبهم فهذا وضع خطير غير مقبول! لأن محبته لله مهددة بالزوال في أية لحظة.

عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد طوائف من الناس، ما الذي حصل؟

المؤلفة قلوبهم من أهل مكة الذين تألفهم رسول الله، لكنهم بعد ذلك بنَوا محبتهم لله على أسس صحيحة، كانوا هم أسودَ الإسلام الذين نافحوا عنه أيام الردة، وبذلوا في ذلك أرواحهم ودماءهم وأموالهم.

بينما ارتد من بقي (حبشرطيًّا) متعلقًا بالدنيا عندما تعرض لفتنة وفاة النبي وتمردِ الزعماء.

إنَّ استقرار هذا المفهوم في نفوسنا -(محبة الله غير المشروطة)- يمنحنا فهما أعمق لكثير من حقائق ديننا.

فمثلا: عندما نقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)

قد يكون من أسباب ذلك:

أن الطاعة الكثيرة المتقطعة كثيرًا ما تكون مدافعةً لبلاء حل أو ابتهاجًا مؤقتًا بنعمة جديدة، خاصة إذا تبعها فتور شديد في الطاعة.



أما العمل المستمر من الطاعات فعادة ما يكون نابعًا من حب مستقر في القلب لا يتأثر بالحوادث السارة أو الحزينة.

إذًا، أخي وأختي:

إذا وجدت في نفسك هذا الداء الخطير: (شرطية محبة الله)، فعليك أن تعترف به وتسعى لعلاجه؛ فهو أخطر من أية مصيبة دنيوية؛ لأنه مصيبة في الدين، وخللٌ فيما نعيش من أجله.

خلاصة هذه المحطة:

تخلص من مرض (الحبشرطية)

وابن حبك لله على أسس سليمة لا تزول بالمتغيرات.

الله يتودد إلينا بالبلاء

لاحظ أبو غسان فتورًا في مشاعر ولديه الشابين تجاهه.. فغسان ورامي أصبحا يأتيان كل صباح إلى غرفة أبيهما ويمدان يدهما قائلين : (المصروف يا أبي لو سمحت) بشكل روتيني رتيب.. يعطيهما المصروف فيشكرانه على عجل وينطلقان من البيت.

أراد أبو غسان أن يذكر ولديه بأن علاقته بهما ليست علاقة مصروف فحسب.. فعندما جاءا هذه المرة ومدا يديهما لقبض المصروف، قال لهما أبوهما بلهجة تنبض بالحب الصادق: (أحبكما يا ولديَّ). كان أبو غسان يتمنى أن تلتقي عيناه بعيني ولديه وهو يقول هذه الكلمات فيقرأ فيهما البهجة والاعتزاز بما قال لهما.. كان يريد أي مؤشر على أن ولديه يحبانه لذاته، لا للمصروف الذي يأخذانه منه.

لكن تجاوب الولدين كان مخيبًا للآمال ! هزَّا رأسهما قائلَين في شرود ذهن: (ونحن كذلك)، أي نحن كذلك نحبك.. وبقيا مادَّين يديهما وأنظارهما مثبتة على جيب والدهما، ففيه المصروف!

صُدِم الأب وانقلبت ابتسامته ذبولًا وأخرج يده من جيبه دون المحفظة.. انتبه الولدان لما حصل وأدركا عدم لباقتهما في التجاوب مع كلمات أبيهما الرقيقة.. قبضا يدهما وأنزلاها.. حاولا تدارك الموقف..

أما رامي فقال : (أبي أنا آسف.. طبعًا أنا أحبك.. أنت أبي الذي رعيتني وأنفقت علي ولا غنى لي عنك).. كان رامي يقول هذه الكلمات وذهنه في المصروف، يتوقع أن يمد والده يده في جيبه ويعطيه المصروف.. لكن الأب

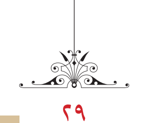
لم يفعل وبقي صامتًا. فقال رامي : (أبي، رجاءً أنا أحتاج المصروف.. أعدك أن أكون أكثر لباقةً لكن لا تحرمني من المصروف). لم يتجاوب الأب فتضايق رامي وخرج مغضبًا من الغرفة.

وأما غسان، فقد هزَّ الموقف كيانه! هو يحب أباه بالفعل، لكن قلبه كان قد ذُهِل عن هذه المحبة بتعلقه بالمصروف في الفترة الماضية. ملامح الأب الذابلة العابسة أيقظت مشاعر غسان، فأدرك كم كان مقصرًا في حق أبيه في الفترة الأخيرة.. أدرك أنه كان أنانيا لا يفكر كثيرًا في شعور أبيه ولا يجتهد في إدخال البهجة إلى قلبه.. اغرورقت عينا غسان بدموع حارة وقال بصوت متهدج: (آسف يا أبي الحبيب.. لقد غفلت عنك كثيرًا! سامحني أرجوك.. الدنيا كلها لا تساوي ابتسامة منك).. قال هذه الكلمات وهو يقلب عينيه الدامعتين في وجه أبيه باحثًا عن أية بادرة انفراج لعبوسه.. لكن الأب بقي عابسًا صامتًا وخرج من غرفته وجلس على الأريكة لا يتكلم.

لَحِقَه غسان وتحرك حول أبيه كالقط، فتارةً يقبل يديه وتارةً يقبل رأسه وتارةً يمسك بيدي والده بين يديه ودموعه منهمرةً على خديه وهو يقول: (سامحني يا أبي أرجوك.. أنا أحبك.. تعلم أني أحبك)..

تنازعت الأبَ مشاعرُ متباينة.. فهو لا يحب رؤية ولده كسيرًا بهذا الشكل، لكنه ما زال مصدومًا من جفاء ولديه في أول الأمر، كما أنه يريد مزيدًا من الضمانات لصدق محبة غسان.. انسحب الأب وعاد إلى غرفته بصمت وأغلق الباب وراءه.

أحس غسان بالضياع فلحقه وقال من وراء الباب مناديًا: (أبي



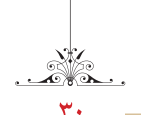
أرجوك.. لا أطيق الحياة دون رضاك.. لا أستطيع العيش وأنا أراك غضبان حزينًا.. لقد أخطأت يا أبي لكني أحبك.. أحبك يا أبي.. أرجوك سامحني.. أرجوك ابتسم في وجهي.. أرجوك ضمني إلى صدرك).. وتعالى صوت بكاء غسان كطفل فزعٍ تركته أمه في صحراء وتولَّت عنه.

حينئذٍ انهار سد الجفاء في قلب الأب أمام دموع غسان.. فتح الباب ورفع ولده الذي كان جاثيًا على ركبتيه وضمَّه إلى صدره وجعل يمسح دموعه ويقبل رأسه.. استمر بكاء غسان، لكنه الآن بكاء فرحة وحنينٍ أُشبعَ..

مدَّ الأب يده في جيبه ليستخرج مصروف غسان، لكن غسان أعاد المحفظة إلى جيب أبيه وقال له وهو ملتصق بصدره (دعنا الآن من المصروف.. أريدك أنت يا أبي الحبيب.. ما دمت راضيًا عني فالدنيا كلها تهون).

ولله المثل الأعلى.. قد يعلم الله تعالى من عباده جفافًا في محبتهم له، وتعلقًا بنعيم الدنيا الذي يمنحهم إياه.. هو تعالى يتودد إلى عباده ويحب منهم أن يبادلوه الوُدّ وُدًّا.. فإذا رأى منهم جفاءً وغفلةً قطع عنهم نعمةً من النعم ليهز كيانهم ويوقظهم من غفلتهم لعلهم ينتبهون إلى حقيقة أن النعمة ألْهَتهم عن المنعم..

أما فقير المشاعر كـ "رامي"، فلا يفهم هذه الأبعاد، بل لا يزال في غفلته قد سيطر "المصروف" على تفكيره.. فيستغفر الله ويجتهد في الطاعات ليسترجع "المصروف". ليست مصيبته في عتاب الله له، إنما مصيبته قطع "المصروف"! بلادةٌ في التفكير وقصور في النظرة وفقر في المشاعر! لا



يفكر إلا فيما يأخذه، ولا يرى من واجبه أن يشكر ويبادل الوُدَّ وُدًّا.

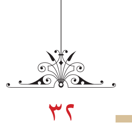
وأما صاحب الحس المرهف والقلب الحي كـ "غسان"، فإن قطع "المصروف" يزيل عن عينيه الغشاوة ليبصر المصيبة الحقيقية، أنه قصر في حق الله تعالى وغفل عنه.. فكل ما يسيطر على كيانه هو كيف يسترضي الله تعالى ويبرهن له على أنه يبادله الوُدّ وُدًّا.. أما عودة "المصروف" فتصبح قضية ثانوية.. لأنه قد يعيش، ولو بصعوبة، دون المصروف، لكنه لا يطيق لحظةً من الضياع الذي سيعانيه إن فقد معيَّة الله تعالى أو أحس بأن الله لا يحبه.

في النهاية، قد يعود "المصروف" للاثنين: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].. لكن الأول، فقيرَ الشعور، سيخرج من البلاء كما دخل فيه لم يستفد شيئاً.. ما دام يرى عودة «المصروف» غاية الآمال ومنتهى الطموحات. وأما الثاني فإن المحنة كانت أكبر منحة له، حيث أطلقت روحه من قيد الغفلة لتدور في فلك محبة الله تعالى.. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [هود: ٢٤].

ورد عن الصالحين أن بعضهم كان يبتلى بمرض أو غيره وقد عرف عنه أنه مستجاب الدعوة، ومع ذلك لا يدعو الله تعالى بكشف البلاء.. ستقول: هذه المرويات فيها مبالغة. ربما نعم، ولكننا إذا فهمنا المعاني المذكورة هنا فلا نستبعد أن يحصل ذلك.. فلعل هذا المبتلى فهم البلاء على أنه تذكرة من الله تعالى بأنك قد غفلت عن خالقك، ويريد ربك منك أن تبادله التودد توددًا.. فيسيطر هذا التفكير على كيان المؤمن المبتلى ويعيد حساباته ليكتشف مواطن الغفلة ويُنَشِّط معاني المحبة في قلبه ويتفنن في البرهنة لربه على صدق محبته له سبحانه..

مثل هذا التفكير لا يبعد أن يشغل المؤمن عن الدعاء بكشف البلاء.. بل قد يرى إعطاء الأولوية للدعاء بكشف البلاء سوء أدب لأنه يدل على عدم اعتناء بالسبب الذي من أجله ابتُلي (التذكرة بمبادلة التودد توددًا)، ولأنه يعلم أن استمرار البلاء أدعى لرده إلى دائرة محبة الله.. فهو ينشغل بإعمار قلبه بمعاني المحبة من جديد، ويكِل أمر توقيت رفع البلاء إلى الله ويوقن بحكمته تعالى في ذلك ورحمته.

أرأيت بعد ذلك لماذا (الله يتودد إلينا بالبلاء)؟ ألم تر أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: (وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم).
فانظر إلى الابتلاء بإيجابية، لا على أنه عقوبة محضة، بل هو بشكل من الأشكال تودد من الله! رأى منا غفلة عنه وجفافا في عاطفتنا تجاهه، فابتلى لنراجع أنفسنا، فنستحي، فنحب، ونتودد.. لله رب العالمين.



إن لم تستوقفك هذه الآيات فجدد محبتك!

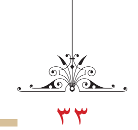
كم يتودد الله تعالى إلينا وهو الغني عنا! أليس من أسمائه (الودود)؟ انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

الله تعالى يتودد في هذه الآيات إلى المؤمنين ويستجيش مشاعرهم بتذكيرهم بأنه يهديهم ويرحمهم وسيلقاهم يوم القيامة بأجر كريم يعبر عن محبته لهم. وكأنه يقول لهم: ما دمت أفعل ذلك كله لكم، ألا أستحق منكم أن تحبوني فتذكروني كثيرًا كما يذكر المحب محبوبه.

لا ينبغي أن تكون علاقتنا بالله تعالى محصورة في انتظار النعيم الدنيوي، بل ولا الأخروي فحسب.. لابد أن يكون رضا الله مطلبا في ذاته. لا بد أن نحب الله ونحرص على أن يحبنا هو أيضًا سبحانه وتعالى، وألا نطيق الحياة دون هذه المحبة.

ألا ترى أن الله تعالى ختم كثيرًا من آيات الأوامر ببيان أنه يحب من يفعل كذا وكذا ولا يحب من يفعل كذا وكذا؟ ماذا نستفيد من هذه الخواتيم؟ إن كنا أولياء لله تعالى وصادقين في محبته فإن هذه الخاتمة (والله يحب كذا) ينبغي أن تكون كافيةً في تشجيعنا على تنفيذ الأمر، لنحصل على هذه الجائزة العظيمة: محبةِ الله لنا. كم تكررت هذه الخواتيم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾،



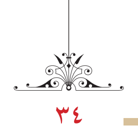
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ألم تقف عند هذه الخواتيم من قبل؟ ألم تشعر بالسعادة الغامرة إن كنت من أصناف الناس الذين يحبهم الله تعالى؟ ألا تعني لك هذه المحبة الشيء الكثير؟ ألا تستحق محبة الله أن تكون أسمى الأمنيات وأجلّ معنى نعيش من أجله؟

إن لم نقف عند هذه الخواتيم من قبل، إن لم نحرص على أن نكون من أهلها، إن لم تكن محبة الله كافية في أن نكون من المحسنين والصابرين والمتقين والمتطهرين والمتبعين للرسول الأمين والمتوكلين، وفي سبيل الله من المقاتلين.. إن لم تكن محبة الله كافية في أن نبذل جهدنا في التخلق بهذه الأخلاق.. ألا يدل ذلك على أن هناك جفافًا في محبتنا لله ونقصَ اهتمام بمحبته لنا؟

وفي المقابل: ترى أن الله تعالى نهى عن أمور وأتبع النهي بأنه تعالى لا يحب من يفعل كذا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾..

أخي راجع نفسك، هل كنت كلما قرأت هذه الآيات تفكر بالطريقة التالية: (إن لم يحبني الله فسيعرضني لبلاء أو يحرمني من نعيم)؟ هل هذا هو كل ما يهمك؟ أن يستمر النعيم ويُدفع البلاء؟ ألم تشعر بوخز وألم ألّا يحبك الله تعالى؟ أليس هذا شيئًا مرعبا وعقوبة كافية في ذاتها ألا يحبنا الله؟ ألا تكفي هذه العقوبة في أن تحرص كل الحرص على البعد عن الظلم والعدوان والإسراف والخيانة لأن الله تعالى لا يحب من اتصف



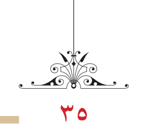
بهذه الصفات؟.. أن تفتش في أقوالك وأفعالك وتحاسب نفسك حسابًا دقيقًا خشية أن تفقد محبة الله لك وأنت لا تشعر؟

اسأل نفسك هذه الأسئلة لتعرف إن كنت أقرب إلى شخصية رامي الجاف أم غسان الذي لم يطق أن يرى العبوس في وجه أبيه ولم يتصور العيش وهو يحس بنقص محبة أبيه له، لوفاءٍ ونبلٍ في نفسه.

ألا ترى كيف أن الطفل الصغير يستمد ثقته بنفسه من محبة والدَيه له؟ لا يشعر بالاستقرار والطمأنينة إلا إذا عبّر والداه عن محبتهما له.. إذا قال له أبوه: لا أحبك، فإن هذا يهدد استقراره ويدمر ثقته بنفسه ويعطيه نظرة سوداوية للحياة. ألسنا نحن الخلق عيال الله تعالى ما لنا معيل ولا ملجأ إلا هو سبحانه وتعالى.. إذا قال الله لك: لا أحبك.. ألا يخيفك ذلك؟ ألا يجعلك ترتعد؟ ألا يُسَود الحياة في وجهك؟ ألا يهدد ذلك استقرارك وطمأنينتك؟ ألا ينبغي لك أن تحاسب نفسك على كل قول أو فعل يمكن أن يجعلك من هؤلاء الذين ذكر الله تعالى في كتابه أنه لا يحبهم؟

عندما يتشرب قلبك هذا المعنى فستجد وقعًا عظيمًا وإحساسًا جديدًا بكثير من الآيات والأحاديث، مثل قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].. تأمل هذه الآية كلمة كلمة لترى كيف تنبع منها محبة الله.. وفي المقابل الآيات والأحاديث التي تذكر أصنافًا من الناس لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم.. فكفى بها عقوبة ألا يكلمك حبيبك ولا ينظر إليك إن كنت صاحب قلبٍ حيّ..

تأمل معي كذلك الحديث الذي رواه البخاري أن الله يقول لأهل الجنة: ((يا أهل الجنة))، فيقولون: لبيك وسعديك، والخير في يديك،



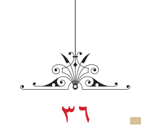
فيقـول: ((هـل رضيتـم؟)) فيقولـون : ومـا لنـا لا نـرضى يـا رب، وقـد أعـطيـتنا مـا لـم تـعـط أحــدًا مـن خـلـقـك، فيقـول: ((ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟)) فيقولـون: يـا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقـول: ((أُحِلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا))..

يصعـب على جاف الشـعور أن يفهـم لمـاذا هـذه أعظـم النعـم! فما دام أهـل الجنـة في ظـل ممـدود وفاكهـة كثـيرة وحـور عـين فمـاذا يضيـف إليهـم رضـوان الله في نظـره؟!

أما صـادق المحبـة فيعلـم أن رضـا المحبـوب أسـمى الأمنيـات ومنتهـى الطموحـات: ﴿وَعَـدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِيـنَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْـرِى مِـن تَحْتِهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِيـنَ فِيهَـا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَـةً فِى جَنَّـٰتِ عَـدْنٍۚ وَرِضْـوَٰنٌ مِّـنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِـكَ هُـوَ ٱلْفَـوْزُ ٱلْعَظِيـمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].. نعـم! رضـوان الله أكـبر مـن النعـم الأخرى كلهـا.. أكـبر مـن الجنـات والأنهـار والمسـاكن الطيبـة.. إنـه رضـا أعظـم محبـوب سـبحانه وتعـالى.

تـأمـل معـي كذلك قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].. يتودد إلينا ربنا ويطلب منا أن نذكره ويعدنا حينئذٍ بجائزة.. ما هي هذه الجـائـزة؟ أن يـذكرنا تعالى. ضعيف المشاعر لا يفهم ما الميزة في أن يذكر الله العبد. أما صادق المحبة فيكفيه أن يذكره أعظم محبوب: الله سبحانه وتعالى.

تأمـل معـي كذلـك الحديـث الـذي يصـور فرحـة الله تعـالى بتوبـة عبده: ((لَلّهُ أفــرَحُ بـتـوبـة عـبــده مـن أحــدكم يجد ضالته بالفلاة)) (رواه مسلم). فالإنسـان النبيـل المؤمن يكفيـه دافعًـا إلى التوبـة علمُـه بأنهـا سـتفرح مـن؟ سـتفرح أعظـم محبـوب.. الله سـبحانه وتعـالى!



بل هناك بعد آخر جميل أيضًا : إذا أهداك من تحب هدية، فبأيهما أنت أفرح؟ بالهدية ذاتها أم بدلالتها على محبة من أهداها لك؟ بل تفرح أكثر بأن من أهداها إليك يعبر بذلك عن حبه. لذا ففرحة أهل الجنة مضاعفة، فهم ليسوا فرحين بما آتاهم الله من فضله فحسب، بل وبدلالة هذا الإنعام على حب الله لهم ورضاه عنهم كذلك..

فلا تنس استشعار هذا المعنى كلما قرأت آيات وأحاديث الإنعام الإلهي.. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.. رضا الله الذي يدل عليه هذا النعيم أهم من النعيم نفسه.

طبعًا لا يعني ما تقدم أن المؤمن يطيع الله تعالى ويعبده محبة فحسب دون انتظار ثواب أو خوف عقاب، فهذا شطط ترده نصوص القرآن والسنة كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].. وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].. إنما المقصود التنبيه على معنى كثيرًا ما يغيب عن الأذهان ينبغي أن يحتف بالخوف والرجاء، ألا وهو طاعة الله حبًّا له تعالى والحرص على حبه تعالى لنا ورضاه عنا.

هل اقتنعت الآن أن الله تعالى يتودد إلينا؟ هل استوقفتك هذه الآيات من قبل؟ هل كنت حريصًا على أن تبادل الله الوُدَّ وُدًّا؟ أم أنك التهيت بالنعم عن المنعم؟ إذا كنت التهيت فلا تعجب عندما يبتليك الله تعالى ليذكرك أن تبادله الوُدّ وُدًّا. حتى لو كان الابتلاء شديدًا، فلن يكون أشد من جفاف الروح وقحط القلب بخلوه من تذوق تودد الله لنا ومبادلة هذا الوُدّ وُدًّا. فإذا دفعك البلاء إلى هذا التذوق فقد ربحت كل شيء، ولم تخسر شيئًا، مهما كانت خسارتك كبيرة في الظاهر.

الحمد لله على أنه لم يعطني ما تمنيت!

ذكرنا أن البلاء يعينك على أن تبني حبك لله على أسس سليمة، وقلنا أن من هذه الأسس تأملَ أسماء الله وصفاته. البلاء يعينك على فهم هذه الأسماء والصفات.

- سنتكلم بداية عن صفة الحكمة.. حكمة الله تعالى في الابتلاء.

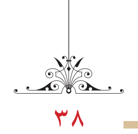
- سبحان الله! مِن الناس مَن يشككه البلاء في حكمة الله، بينما المؤمن يزيده البلاء يقينا بحكمة الله!

من جميل ما قيل: «متى فتح -أي الله تعالى- لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء. متى أعطاك أشهَدَك برّه، ومتى منعك أشهدَك قهره، فهو في كل ذلك متعرّف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك. إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه».

إذن، قد تُحرم من نعمة.. فإن وفقك الله للتفكر في حكمته عندما حرمك، فإن هذا التفكر سيعود عليك بعطايا هي أعظم بكثير مما حرمت منه، وسترى أن الله تعالى يُعرِّفك بأسمائه وصفاته من خلال هذا البلاء. أما الذي لا يرى البلاء إلا شرًّا محضًا فمصيبته في قلة التفكر وقلة فهم حِكَم الله.

قال ابن القيم: (ولو أنصف العبد ربه، وأنَّى له بذلك، لعلم أن فضله عليه فيما مَنَعَه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه) (الفوائد).

المفتاح للتفكر والفهم هو أن توقن أن لله في كل شيء حكمة. تجاوَزْ الشك في وجود الحكمة. أيقن بحكمة الله ثم تفكر: ما هي هذه الحكم؟ وستُفْتَح لك حينئذ كنوز عظيمة.



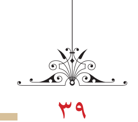
والمفتاح الآخر أن توقن بجهلك في مقابل حكمة الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

مررتُ ببلاءِ تقييد حريتي.. في كل مرحلة منه كنت أتمنى أن يتوقف البلاء عند هذا الحد وأعود إلى حياتي كالمعتاد. وفي كل مرحلة كنت أظن أن توقف البلاء عند هذا الحد هو الأنفع لي. لكنني في كل مرحلة كنت أكتشف أن استمرار البلاء كان أنفع لي من توقفه! والآن لو سئلت: هل تتمنى لو أن كل هذا الذي حدث لك لم يحدث؟ فجوابي: لا والله! بل أنا سعيد جدًّا بأن الله تعالى لم يحقق لي ما تمنيته ودعوت به من العودة لحياتي الطبيعية، بل اختار لي ما هو أفضل من اختياري لنفسي.
أحمد الله على أنْ استمرت نعمة البلاء هذه المدة كلها لأقطف منها الهدايا الربانية العظيمة.

قال ابن القيم: (ومن الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمةٍ أنعم الله بها عليه واختارها له فيملّها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم -لجهله- أنه خير له منها. وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه...).
ثم قال: (فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورُشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمةٌ من نعمه عليه ورَضّاه به وأوزعه شكره عليه) (الفوائد).

والحمد لله وصلت إلى هذه المرحلة في أواخر بلائي: لم تعد المسألة صبرًا فحسب، بل أصبحت أشكر ربي على ما أنا فيه من نعمة البلاء.

قبل تجربتي تلك كنت أتساءل أحيانًا عن الحكمة في تقدير البلاء على



علماء ودعاة يفيدون الناس بدعوتهم وهم أحرار، كالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وسيد قطب وغيرهم. كنت أفهم بعض الحكم من ذلك، لكني كنت أتمنى أن يطمئن قلبي أكثر. كنت أفهم جانبًا من الحكمة نظريا لكنني بتجربة البلاء فهمتها عمليًّا.

إذا ابتُليتَ ووفقك الله للفهم فسترى كيف أن من يعمل للإسلام تبقى في شخصيته حلقة مفقودة لا تكتمل إلا بالتضحية، عندما يقدم ثمن دعوته.

سترى كيف أن الله يفتح على الأسير في سبيله فتوحاتٍ ما كانت تخطر بباله خارج السجن. ستفهم كل كلمة من الكلمات التالية العظيمة لسيد قطب رحمه الله:

(فلا بد من تربية النفوس بالبلاء ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس الثمرات. قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]..

لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفيس الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تَعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها.

كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها وصبرهم على بلائها. ولا بد من البلاء كذلك لِيَصْلُب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى، ومدخور الطاقة، وتفتح في القلوب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن إلا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في

جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والرَّان عن القلوب. وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله: الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام -وهي شتى- ويخلو القلب إلى الله وحده لا يجد سندًا إلا سنده. وفي هذه اللحظة قد تنجلي الغشاوات، وتنفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر: لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوتُه، لا حول إلا حولُه، لا إرادة إلا إرادتُه، لا ملجأ إلا إليه.. لذلك إن الله قد وضع الابتلاء لينكشف المجاهدون ويتميزوا، وتصبح أخبارهم معروفة، ولا يقع الالتباس في الصفوف، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين، ولا أمرِ الضعاف الجزعين) انتهى كلامه رحمه الله من كتابه (في ظلال القرآن- تفسيره سورة البقرة).

إذن هذه من حكم الله تعالى في ابتلاء الدعاة. صحيح أنهم لو بقوا بكامل حريتهم لربما تمكنوا من مخالطة الناس وقراءة المراجع وبث المؤلفات أكثر. لكن الله تعالى يريد أن يُخْلِصَ نياتهم ويبث الحياة في كلماتهم.. فكما قيل: فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل.

- لا يعني هذا أنك ستحيط بحكمة الله في البلاء كلها أو أن لك ألا تحسن الظن حتى تدركها.. فالله تعالى قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]...

- فلن تدرك إلا قليلًا من حكم الله تعالى. لكنه سبحانه برحمته أطلعك على شيء من حكمته ليطمئن قلبك.

خلاصة هذه المحطة:

ثق بحكمة الله في ابتلائك، وسيكشف لك كنوزًا عظيمة.



ستفرج في اللحظة المناسبة!

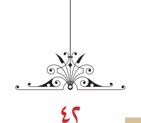
لا زلنا نتكلم عن حكمة الله عز وجل في الابتلاء، وهنا نضيف عنصرًا جديدًا ألا وهو الحديث عن: حكمة الله عز وجل في اختيار مدة البلاء.
كان يأتيني أحيانًا خاطر في بلائي فأقول في نفسي: (حتى هذا الحد استفدت كثيرًا من هذه التجربة لديني، لكني أخشى إن طال البلاء أن يصبح المفعول عكسيًّا)!

ثم قلت لنفسي: وما شأنك أنت؟ أنت عبدٌ؛ دع أمرك لله عز وجل الحكيم الخبير العليم، هو أعلم بمدة البلاء، وشدته، وتوقيته، ونوعه، يختار ما يشاء سبحانه وتعالى، وهو الحكيم في اختياره.

حتى نفهم هذا المعنى؛ تعال نتأمل قصة غزوة الأحزاب (الخندق):
وقع البلاء في وقته، وارتفع في وقته.. كانت الأزمة قد استمرت حتى وقع التمايز التام بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمؤمنين، وانكشفت حقائق الرجال..

فمن حكمة الله ورحمته أن البلاء استمر إلى أن تحققت هذه الأمور، فيأخذَ المؤمنون حذرهم من المنافقين، ولا يتأثرون بعدها بأقوالهم وسمومهم التي ينفثونها بمكر.

ومن حكمة الله ورحمته أيضًا أن البلاء لم يستمر ويشتد أكثر من ذلك فتزل قدمٌ بعد ثبوتها وينخلع بعض المؤمنين عن إيمانهم ويقينهم.
﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]..



فالمؤمنون لما رأوا الأحزاب ثبتوا وصبروا، و(إنما الصبر عند الصدمة الأولى).. فنجاهم الله عز وجل بإيمانهم وأنطقهم بكلام حَفِظَ عليهم دينهم..

وقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.. قال المفسرون أنهم يعنون به قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (قال ابن عاشور إن هذه الآية نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام).

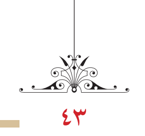
لكن البلاء استمر واشتد.. ودام الحصار شهرًا، وفي هذا الشهر: جوع، برد، خوف..

حاول المشركون الإغارة على المسلمين من نقاط ضعف في الخندق.

وبلغت الأمور ذروتها عندما علم المسلمون أن يهود بني قريظة نقضوا العهد وتحالفوا مع المشركين.. والآن، في أية لحظة، يمكن ليهود بني قريظة أن يفتحوا بواباتهم، فينساحَ المشركون في المدينة ويعيثوا فيها قتلًا وتعذيبًا وانتهاكًا للأعراض.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]..

في هذه اللحظة نجّى الله المؤمنين، وأرسل الله الريح فاقتلعت خيام



المشـركين، وكفـأت قدورهـم، وشـردت جموعهـم، وانسـحبوا مهزومـين.
أُنظـر -سـبحان الله العظيـم!- إلى هـذا التوقيـت المناسـب.

تعال الآن نتأمل:

ماذا كان سيحصل لو تأخر النصر عن هذا الحد؟
وماذا كان سيحصل لو جاء النصر قبل هذا التوقيت؟
لـو تأخـر النصـر -أكـثر فأكـثر- يُخشى أن بعـض المؤمنـين كان سـينطق كلاما أو يفعـل أفعـالًا كما صـدر مـن المنافقـين.
المنافقـون كانـوا يقولـون: « قـد كان محمـد يعدنـا فتـح فـارس والـروم، وقـد حصرنـا هاهنـا، حـتى مـا يسـتطيع أحدنـا أن يـبرز لحاجتـه، مـا وعدنـا الله ورسـوله إلا غـرورًا» (الطـبري).

لـو تأخـر النصـر لربمـا اعتمـل الشـك في قلـوب المؤمنـين وحـاك في صدورهم ما يَهـدم ماضيهـم ويُذهِـب حسـناتهم.
لكـن الله -عـز وجـل- بحكمتـه ورحمتـه حفـظ عليهـم دينهـم؛ فلـم يتأخـر النصـر أكـثر مـن ذلـك الحـد؛ لأن الله يبتلـي المؤمـن علـى قـدر دينـه.

طيب، السؤال الآخر:

لماذا لم يأت النصر قبل ذلك؟
لمـاذا لـم تحسـم المعركـة ولـم تـأت الريـح في اليـوم التـالي مـن الحصـار، الأسـبوع الأول مـن الحصـار، الأسـبوع الثـاني مـن الحصـار؟
لماذا امتد الحصار شهرًا كاملًا؟

لله في ذلـك حكـم، منهـا -والله تعـالى أعلـم بحكمتـه- أن الله عـز وجـل أراد أن يصلـب عـود المؤمنـين، فكلما اشـتد البلاء صلـب عودُهم وترقَّـوا في المنازل.

ومنها أن هذه الزلزلة التي حصلت لهم كسرتهم أمام الله وأشعَرَتْهم بافتقارهم إلى رحمته سبحانه وضعفهم في المقابل، فلا يصيبهم العجب بأنفسهم ولا يغتروا بها، ولا يسندون الفضل إلى أنفسهم في الصبر والثبات، بل يسندون الفضل كله إلى الله عز وجل الذي نجاهم في اللحظة الحرجة.

إذن:

لم يتأخر النصر إلى حد يمكن أن يحيك معه في صدور المؤمنين ما يذهب بإيمانهم.

ولم يأت في مرحلة مبكرة قبل أن يشتد البلاء ويصلب عودهم وتذل نفوسهم لله ويعلموا أنْ ليس لهم إلا الله عز وجل ويتمايزوا عن المنافقين وتنكشف لهم حقائق هؤلاء المنافقين.

فانظر إلى حكمة الله -سبحانه وتعالى- في مدة البلاء.

فسبحان الحكيم الخبير الذي لا يُضيّع عملَ عباده المؤمنين، وفي الوقت ذاته يربيهم ويؤدبهم.

خلاصة هذه المحطة:

أيقن بحكمة الله في اختيار مدة البلاء.

مذاقات لا توصف!

- لا زلنا نتكلم عن حكمة الله عز وجل.. وكيف أنك عندما تتأمل حكمته تعالى في الابتلاء يكون ذلك سببًا في زيادة محبة الله، فتنقلب المحنة منحةً، بخلاف الذين ينهار حبهم لله إذا ابتُلوا.

- قبل نعمة البلاء الذي مررت به كنت أتساءل: كيف يصبر المؤمنون الذين يبتليهم الله بابتلاءات شديدة. كنت أومن بقدرته تعالى على تصبيرهم لكن أتمنى أن يطمئن قلبي. وعندما خالطتُ نماذج من هؤلاء الناس كان من نعمة الله علي أن فهمت كيف يصبرون. فأورثني ذلك سلامة صدر تجاه أقدار الله تعالى.

- رأيت أولًا أن من حكمة الله تعالى أنه لا يبتلي عباده المؤمنين بقواصم ظهر لا يتحملونها.. بل ببلاء يتناسب مع إيمانهم.

- روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)) (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط)

- ثانيًا: رأيت كيف يرفق تعالى بعباده المؤمنين فيتدرج في ابتلائهم.. يبتلي على قدر الإيمان.. ثم يصبر.. فيزيد الصبرُ الإيمانَ إلى درجةٍ تؤهله لتَحَمُّل ابتلاء أشد.. يبتليه الله ذلك البلاء.. ثم يصبر.. وهكذا.. فيبقى البلاء يمتزج بالإيمان فيرتقيان بالعبد في المنازل إلى درجة ما كان يحلم بها

ولا يتصور أنه أهلٌ لها في بداية بلائه!

– ثالثًا: حتى على فرض أن بلاءً شديدًا حلّ بالمؤمن فجأة.. رأيت كيف أنه تعالى يمنح عبده المؤمن مذاقات تُذاقُ ولا توصف! تمامًا كطعم الفاكهة ورائحة العطور..

– لو طلبت منك أن تصف لي طعم البرتقال أو التفاح أو رائحة الياسمين أو الريحان.. هل تستطيع؟ هذه مذاقات تذاق ولا توصف.

– كذلك فإن عباد الله هؤلاء الذين لا تتصور كيف يصبرون، ذاقوا طعم السكينة والأنس بالله وتعلق القلب به والرضا بقضائه.. هذه المعاني مذاقات: تذاق ولا توصف. ذقت في تجربتي شيئًا منها فعرفت أثرها.. لكني في نعمة البلاء خالطتُ أناسا أحسبهم خيرًا مني وأكثر عيشًا لهذه المعاني مني.

– كانت بلاياهم شديدة، أشد من بلائي بكثير، ولكن وجوههم مع ذلك كانت تشرق بالرضا والبشر والسكينة، وألسنتهم تلهج بحمد الله واستصغار صبرهم ما دام لوجه الله تعالى. بل إن أحدهم قال لي: (إني، وأنا أدعو الله بالفرج، أكاد أحيانًا أسأل الله ألا يستجيب دعائي، لما أتذكره من عظيم أجري حينئذٍ في الدار الآخرة)!

– كنت أذكر لهذا الأخ أني أحسن الظن بالله تعالى أنه سيجعل لي فرجًا ومخرجًا قريبًا، فكان يقول لي: (هذا جميل، ولكني أريد لك مستوى أرقى من ذلك: أريدك أن تستمتع بنعمة البلاء!).

– تستمتع بنعمة البلاء! لم أفهم كلمته هذه في حينها لكني بدأت أعيشها بعد فترة من استمرار "نعمة البلاء".

- لقد رأيت في تجربتي طرفًا من حكمة الله في الابتلاء.. بدأ البلاء خفيفًا في البداية وظننت أنه سيزول قريبًا.. صبَّرَني الله واشتد عودي فزاد البلاء.. وكلما اشتد، كانت تنزل من الله سكينة تُصَبِّر. فالحمد لله الحكيم الرحيم.

- هذه المذاقات العجيبة إن لم تذقها فلك أن ترى آثارها: سحرة فرعون ما كان لهم هَمٌّ إلا: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾[الشعراء: ٤١].. كانوا قد عاشوا سنين طويلة على طلب الدنيا بالسحر ومخادعة الناس.

- ثم ما هي إلا لحظة من الهدى واليقين جعلتهم جبالًا رواسي أمام التهديد بالتقطيع والتصليب، يقولون لفرعون: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[طه: ٧٢، ٧٣]..!!

- يا الله! أناس دنيويون طينيون.. في لحظة ذاقوا فيها هذه المذاقات التي لا توصف تحولوا إلى عمالقة تعلقت أرواحهم بالدار الآخرة لا يرجون من بشر نفعًا ولا يخافون ضرًّا!

فإذا رأيت أناسًا صالحين يُبْتَلَون بلايا شديدة، وثارت في صدرك تساؤلات عن حكمة الله في ابتلائهم، فقل: (عليَّ نفسي. هم لم يشْكُوا ربهم سبحانه لأحد. فإن كانوا راضين بقضاء الله فما شأني أنا؟ فالله أرحم بهم مني).. مع سعيك طبعًا في عونهم ورفع البلاء عنهم إن استطعت.

خلاصة هذه المحطة:

من حكمة الله تعالى

أن يمنح أصحاب البلايا الشديدة مذاقاتٍ لا توصف.

عند طبيب الأسنان

ابنك.. تنصحه ألا يكثر من الحلويات وأن ينظف فمه منها كلما أكلها.
لا يستجيب لنصحك.. يأكلها بكثرة، يصيب أسنانه التسوس، فيأتيك شاكيًا: (بابا أسناني توجعني).
(إذن هيا إلى الطبيب)..
(لا يا بابا أرجوك! سأتألم).
(لا بد من ذلك يا بني، وإلا استفحل التسوس وعانيت ألمًا أشد).
تذهبان، يجلس على كرسي الطبيب، يبدأ بإزالة التسوس.. يصيح ابنك من الخوف والألم: (بابا أرجوك خَلَص)..
تنهره أنت: (اسكت يا بابا! دع الطبيب يعالجك).
يعود الطبيب للعلاج، يسكت ابنك ثم يصيح: (بابا خلص بيكفي)..
تنهره بحزم: (الطبيب أدرى، دعه يكمل عمله)..
خلال ذلك، هل ينظر إليك طفلك بحقد؟! أبدًا طبعًا، فهو يعلم أنك تريد مصلحته. هو لا يريد أن يتألم، لكن يعلم أن معالجة الطبيب توفر عليه آلاما أشد فيما بعد.
أنت كأب، تتألم وأنت ترى ابنك يتألم، حتى أنك قد تخرج من الغرفة لأنك لا تطيق سماع أنينه.

ينتهي العلاج في الوقت المناسب. يقوم ابنك عن الكرسي، وتنصرفان.. في طريق العودة، ينظر ابنك لك بمحبة وإجلال: (أبي يريد مصلحتي في كل ما يفعله. ها قد ذهب الألم وأتمتع أنا الآن بأسنان صحية)..

ولله المثل الأعلى.. ينهانا الله تعالى عن «حلويات» المعاصي ويأمرنا أن نتطهر منها كلما تناولناها..

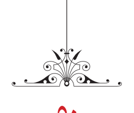
نتغافل، فتصيبنا الذنوب وأمراض القلوب. يعلم ربنا الرحيم أن هذه الذنوب والأمراض سوف تستفحل إن تُركت وتؤذينا. فيضعنا على كرسي البلاء ليطهر قلوبنا منها. نتألم، نخاف، نرجوه تعالى أن يقيمنا عن كرسي البلاء.. وربنا، برحمته، يعلم أن العلاج لم ينتهِ بعد، وأنه لا زال في قلوبنا تسوس.

نعم، لك أن تدعو الله مع ذلك أن يخرجك من البلاء وتُلِحَّ عليه، لكنك مهما طال العلاج تبقى تنظر إليه سبحانه نظرة ذلك الطفل الذي يعلم أن أباه يريد مصلحته، فتحسن الظن بربك عز وجل وتوقن أن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك، ولا يمكن للحظة أن تسيء الظن به، بل تبقى ترجوه وتحبه.

مهم جدًّا أن تعلم: الله تعالى لا يحب أن يراك تتألم، لكن يحب أن يراك تتطهر، لأنه تعالى يعلم خطر الذنوب وأمراض القلوب عليك.

خلاصة هذه المحطة:

إذا تعرضت لبلاء، فاعلم أن الله أراد أن يطهرك..
ارجه أن يفرج عنك، لكن طوال بقائك في بلائك،
أحسن الظن بربك وازدد له حبًّا،
فهو سبحانه أرحم بك منك بنفسك.



فلنحب الله لأنه الودود

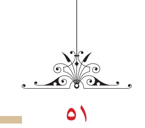
تصور أنك رأيت إنسانًا لا تعرفه، فتبسمت في وجهه، ثم نسيت الموقف. فإذا بهذا الشخص يهديك سيارة ويقول لك: لن أنسى بسمتك. لقد أحسست فيها بمحبتك الصادقة لي. ثم بقي يتصل بك يشكرك على ابتساماتك. وقعت في مأزق فساعدك وسعى معك بوقته وجهده وماله. مرضت فزارك وأطعمك بيده. استحييت منه وقلت له أنك لا تستحق منه هذا كله.. فقال لك: لا.. لن أنسى لك تبسمك في وجهي. وبقي يظهر لك المحبة الصادقة التي لا تشوبها المصالح الدنيوية.

ماذا تسمي إنسانًا كهذا؟ (ودود).. أليس كذلك؟ ألا تحس بالحياء الشديد من تودد مثل هذا الإنسان؟ خاصة إن لم تستطع سداد معروفه وجميله؟

ولله المثل الأعلى! الله سبحانه وتعالى، الودود، يرضى عن عبده ويحبه ويكرمه على أفعال بسيطة جدًّا لا يلقي لها العبد بالا.. بشرط واحد: أن يكون هذا الفعل أو القول أو الشعور خالصًا لوجه الله.

انظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) (صحيح رواه الترمذي). كلمة لعل العبد نسيها وما تصور أن تبلغ هذا المبلغ عند الله، لكنه تعالى يرضى بها عن العبد إلى الأبد لأنه: الودود.

في الحديث الذي رواه الإمام مسلم: ((لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ في الجَنَّةِ، في شَجَرَةٍ قَطَعَها مِن ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ)).. عمل بسيط جدًّا، لكننا نتعامل مع: الودود سبحانه وتعالى.



الله تعالى يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لأنه تعالى: الودود.

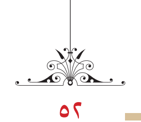
دموع تنزل منك في لحظة تأمَّلْتَ فيها لطف الله وكرم الله وعظمة الله وحلم الله.. دموع.. يظلك الله بها في ظله ويحرم عينك بها على النار لأنه تعالى: الودود.. (ورجُلٌ ذكَرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عيناه) (متفق عليه).. (عينان لا تمسُّهما النَّارُ عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيلِ اللهِ) (رواه البخاري).

في الحديث الذي رواه البخاري عن الرجل الذي أشفق على كلب فسقاه.. ((فشكرَ اللهُ له فغفر له)).

أعمال بسيطة لكن الله يشكرها لأنه الشكور، ويتودد إلينا إذا فعلناها لأنه تعالى: الودود.. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠]..

قد يمحو لك جبالًا من الخطايا ولا يبالي، لكنه لا يمحو حسنةً واحدةً بلا سبب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠﴾ [التوبة: ١٢٠].. لأنه: الودود.

في الحديث الذي رواه مسلم يقول الله تعالى: ((من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة، فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر. ومن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا. ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا. ومن أتاني يمشي، أتيته هرولة. ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة)).. نعم. لأنه تعالى: الودود.



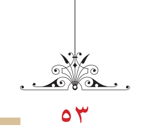
الذي يجعلك تستحي من الله تعالى مع كرمه وتودده أنك لا تستطيع نفعه تعالى بشيء، لا تستطيع أن ترد جميله.. وفوق ذلك.. هو تعالى الذي وفقك للعمل. العبد يختار، صحيح، لكن اختيارك الخير ما هو إلا بتوفيق الله لك. فيوفقك لعمل الخير، ثم يثيبك على الخير الذي وفقك هو له!

ثم الله إذا ابتلاك فصبرك أثابك على الصبر الذي وفقك هو له! يُثيبك ثوابًا عاجلًا في الدنيا ولا بُدّ، ولو بنعيم القلب وأُنسه، ثم يُثيبك في الآخرة.. ما هذا الكرم والود؟.. لا عجب فهو تعالى: الودود.

في ثنايا البلايا رأيت من ربي عز وجل حلمًا ولطفًا ورحمةً ورأفةً وكرمًا وسترًا وإعانةً أكثر مما تصورت! بحثت في ماضيَّ وحاضري لأرى لماذا ينعم الله علي بهذا الشكل! فلم أجد.. فبكيت حياءً من ربي تعالى وقلت له: (والله يا رب ما بستاهل، والله يا رب ما بستاهل). إي والله إني لا أستحق.. ولكنه تعالى: الودود.

ألا يكفي هذا كله في أن نحب ربنا تعالى بلا شروط؟ ألا يكفي هذا كله في أن نحبه في رحم المعاناة والبلاء وأن نأنس به ونكتفي بقربه مهما كانت الظروف؟

إخواني وأخواتي.. فلنحب الله لأنه تعالى: الودود.



لن ينبع الصبر من حنايا نفسك

لا زلنا نبني حبنا لله على أسس سليمة، أولها تأمُّل أسماء الله وصفاته. قلنا أنك إن أتقنت التعامل مع البلاء فإنك ستفهم أسماء الله تعالى وصفاته أكثر وأكثر من خلال البلاء، وهذا سيفضي في المحصلة إلى تحويل البلاء إلى سبب لزيادة محبة الله تعالى.

في المحطات الماضية تأملنا حكمة الله في البلاء ثم تودده لعباده بالبلاء. اليوم نتأمل صفة أخرى من صفات الله تعالى.. ما هي هذه الصفة؟

أحيانًا نعاني من مشكلة، لا نعلم كم تستمر وإلى أي مدىً ستتفاقم.. يشرق في نفوسنا الأمل بزوالها.. تلهج ألسنتنا بالدعاء.. لكن ما نلبث أن يعترينا الخوف ويتراءى لنا شبح اليأس عندما نفكر في أن بلاءنا سيطول ويشتد..

نخاف حينئذٍ، لأننا ننظر في جوانب أنفسنا وحناياها فلا نجد فيها ما يُعَوَّل عليه أن يصبرنا إذا وصل البلاء إلى الدرجة المخوفة. نتعامل مع المسألة بطريقة رياضية: فإن كانت المصيبة مرضًا يُخشى أن يؤدي إلى العمى مثلًا، فإنا نعقد المعادلة التالية لتخيل المستقبل: **أنا - بصر= إنسان تعيس.**

وإن كان ابنك في غرفة العناية المركزة بين الحياة والموت فالمعادلة:
الحياة - ابني = حزن مستمر .. وهكذا

إننا ننسى في معادلتنا هذه عنصرًا مهمًا جدًّا وهو أن الصبر لن ينبع من جوانب نفسك الضعيفة عند حلول المصيبة أو اشتدادها.. إنما هو ينزل من عند الله تعالى! المعين لمن استعان به. اختلف العلماء في

اعتبار المعين من أسماء الله، لكنه بلا شك من صفاته تعالى.

إذن فالصبر ينزل من عند ربنا المعين تمامًا كما ينزل النصر.. ينزل الصبر من عند الله لينصرك في معركتك ضد اليأس والحزن.. و﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٠]..

لاحظ: كما أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٢٦]..فقد قال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل: ١٢٧].. فتركيب الآيتين متشابه.

إنها حقيقة مهمة جدًّا! الصبر ينزل من عند الله وكذلك الأمان والسكينة.. والشواهد لذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾[آل عمران: ١٥٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ١٨]، وقوله تعالى حكاية عن السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهم على وشك أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويُصَلَّبوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[الأعراف: ١٢٦]..

تصوَّر دلوًا يفرَغ بصبِّ ما فيه.. هم يطلبون من ربهم أن يصب عليهم الصبر صبًّا..

ينزل الصبر كالمطر على القلوب المرتجفة الحرَّى فيسكنها ويبردها..

إنها ليست نفسك البشرية الضعيفة التي يعول عليها أن تختلق الصبر وتخوض المعركة!.. إنه الله الـمُعين الذي يثبت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[إبراهيم: ٢٧].. وبما أنه الله الذي يثبت فليس هناك بلاء أكبر من تثبيت الله الـمُعين..

إنه الله تعالى الذي يربط على القلوب المرتجفة التي كادت تنخلع من الصدر حزنًا أو خوفًا من المجهول.. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[الكهف: ١٤]..
وحينئذٍ فلا شيء يخيف إن كان الله هو المعين.

أم موسى عليه السلام.. ألقت ابنها في اليم، فترك وراءه قلبًا فارغًا؛ قلبَ أُمٍّ فقدت فلذة كبدها.. فنزل التثبيت من الله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: ١٠]..

إذن فالصبر ينزل نزولًا من عند الله الـمُعين. وبالتالي، فالمعادلة لم تعد بالجمود الذي كنا نظنه، بل أصبحت:

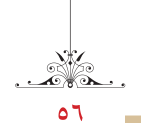
أنا – بصر + صبر من الله = إنسان راضٍ.

الحياة – ابني + سكينة من الله = رضا واحتساب وانطلاقة جديدة.

– أخي! لسنا من الملاحدة الذين لا يؤمنون إلا بالظواهر المادية، بل نحن نؤمن أن الله معنا. ألسنا نقرأ في صلاتنا يوميا ١٧ مرة على الأقل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥]..؟ هل خطر ببالك وأنت مبتلى أن تتأمل هذه الآية عند قراءتها وتتصور قُوَّتَك وأنت تستمد العون من الله تعالى أمام البلاء؟

– لا تقل (لن أصبر)! بل إن استعنت بالله أعانك. انظر إلى قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وإلى ما حكاه عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٨].. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإذا استعنت فاستعن بالله)).

– لا تقل (لن أصبر)! لا بلاء أكبر من إعانة الـمُعين إن استعنت به بصدق. تذكر أهل الأخدود وسحرة فرعون وماشطة ابنته.. كيف نزل عليهم صبر عظيم مقابل بلائهم الشديد بمجرد أن خالط الإيمان قلوبهم فطابت نفوسهم بالتضحية في سبيل الله مع أنهم عاشوا حياتهم قبل



ذلك مشركين. فالذي صبَّرهم قادر على أن يصبرك إذا لجأت إليه..

- لا تقل (لن أصبر)! فكل ما عليك فعله هو أن تستعين بربك الرحمن المستعان.. قال نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه مسلم: ((ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله)).

- لا تقل (لن أصبر)! بل إن استعنت بالله فسينزل عليك الصبر بالمقدار المناسب ليُطَمْئِن قلبك، مهما كان حجم البلاء، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١].. أي: يهد قلبه للخير والصبر والرضا عند المصيبة.

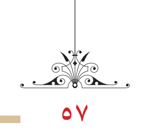
- لا تقل (لن أصبر)! بل انظر إلى هذا الحديث العظيم الذي يلخص محطتنا هذه:

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي صححه الألباني: ((إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة)).

لاحظ ألفاظ الحديث: ((إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة)).. على قدر التكليف، ((وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة)).. الصبر يأتي من الله تعالى المعين، ليس من جوانب نفسك الضعيفة. بل من الله، وبأي مقدار؟ ((على قدر المصيبة)).. بالمقدار المناسب.

خلاصة هذه المحطة:

كل ما عليك فعله هو أن تتبرأ من حولك وقوتك،
وتوقن أنه ما لك إلا الله، فتستعين بالمعين،
وتصلح علاقتك به تعالى لتكسب معيته،
وحينئذ فلا بلاء أكبر من إعانة الله المعين.



الراحمون يرحمهم الرحمن

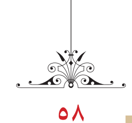
في المحطـة السـابقة تأملنا حكمـة الله وتـودده لعبـاده وإعانتـه لمـن استعان بـه في البـلاء. وفي هـذه المحطـة سنتأمل صفـة جديـدة مـن صفات ربنـا الحبيـب، عندمـا تتأملهـا وأنـت في رحـم المعانـاة يـزداد حبـك لخالقـك ومـولاك. إنهـا: رحمـة الله. تعالـوا نتأمـل جمـال هـذه الرحمـة حتى نطمـع فيهـا، ثـم نعـرف كيـف نحصلها.

رحمة الله.. مصدر الفرح الأعـظم!.. أمـرنا الله أن نـفـرح بها فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].. ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾: أسلوب حصر لأنه أولى ما يُفرح به.. لأن هذه الرحمة هي مصدر الفرح الحقيقي الذي لا يَنْضَبُ ولا يتأثر بالظروف، أولى من متاع الدنيا الفاني.

عرَّف المفسرون هذا الفضل والرحمة بأنهما الإيمان والقرآن. هذان مصدر فرح تحمله في صدرك في السراء والضراء والشدة والرخاء. إيمانك بالله وتأملك لأسمائه وصفاته وشوقك إلى لقائه واطمئنانك إلى معيته وانتظار كرامته.. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]..

هل يملك أحد أن يمسك هذه الرحمة أو يمنعها من الوصول إلى عبد من عباد الله؟ لا والله. قال الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر: ٢]..

سيد قطب رحمه الله.. له تأملات جميلة جدًّا في هذه الآية ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر: ٢].. الجميل أنه كتبها



وهو يعاني من المرض والسجن الطويل في ظروف صعبة قبل أن يُعدم..
أنصحكم إخواني بقراءتها وتأملها مرارًا.. اكتب الآية في محرك البحث ثم (في ظلال القرآن).. واقرأ وتدبر.

مما جاء في كلماته -بالمعنى-:

أن هذه الآية حين تستقر في القلب تُحْدِث تحولًا جذريًّا في مشاعر الإنسان وموازينه، فَتُيَئِّسُه من كل رحمة في الأرض وتعلقه برحمة الله، تلك الرحمة التي يستشعرها قلب المؤمن في كل وضع ولو فقد كل شيء.. فمن أنعم الله عليه بهذه الرحمة ينام على الشوك، فإذا هو مهاد لين، بينما إذا فقد رحمة الله ينام على الحرير فيجده شوكًا، لأنه تعالى قال في الآية نفسها: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ -يعني من الرحمة- ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.. فإن أمسك الله رحمته عن عبد فقُوى الأرض كلها لا تعارض مشيئة الله ولا تنزل رحمته بهذا العبد. فمن أنعم الله عليه بالرحمة فإن ينابيع السعادة والطمأنينة تنبع في نفسه وإن كان في غياهب السجن ورحم المعاناة.

ثم قال:

(ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتُفيض عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكِّكَ فيها، وهو عذاب لا يصبّه الله على مؤمن أبدًا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].. ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم عليه السلام في النار، ووجدها يوسف عليه السلام في الجُبِّ كما وجدها في السجن، ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو

عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]، ووجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار.. ووجدها كل من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها.

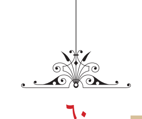
أية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟! آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة؛ وتنشئ في الشعور قيمًا لهذه الحياة ثابتة؛ وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها).

إذن أخي أيًّا كان بلاؤك، ومهما كانت شدته.. اطلب رحمة الله.. وستجدها.

ثم قال سيد رحمه الله - وهنا أنقل قوله باختصار-:

(ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية. لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة. واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقة، وعسر من مشقة.. ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي؛ كأنما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني. حقيقة أذوقها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها -أي هذه الآية بحد ذاتها أحسَّها رحمة خاصة له من الله في لحظة عسره تلك - وقد قرأتها من قبلُ كثيرًا، ومررت بها من قبلُ كثيرًا، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هأنذا.. نموذجًا من رحمة الله حين يفتحها. فانظر كيف تكون!

إنه لم يتغير شيء مما حولي. ولكن لقد تغير كل شيء في حسي! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية. نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها؛ ولكنه



قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة. وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها. وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي. وهأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته) انتهى من كلامه رحمه الله باختصار.

كلام جميل جدًّا من إنسان أحس فجأة برحمة الله فأغنته عن الدنيا كلها وهونت عليه المصاعب كلها.

أخي/أختي، أنت في الأوضاع الاعتيادية عندما تحس بالفرح فإنك قد تعزو هذا الفرح إلى الأسباب المادية.. صحتك، مالك، مكانتك، زوجتك، أولادك، ما تتلذذ به من طعام وشراب.. لكن عندما تكون في بلاء شديد وتفقد كثيرًا من الأسباب المادية ومع ذلك تحس فجأة بالفرح، فإنك تدرك حينئذ أن هذه الفرحة ما هي إلا من رحمة الله وبرحمة الله.. واحة تجدها وسط صحراء العناء.

هذه رحمة الله يا إخواني وأخواتي. أرجو أن تكونوا قد طمعتم فيها.. طيب، ماذا نفعل حتى نحصلها؟

قال ربي سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].. كن من المحسنين.. الواحد منا عادةً إذا وقع في مشكلة ينشغل بنفسه وبمشكلته وكيفية التخلص منها، ويتحسر على ما فاته ويخاف من المستقبل.. ننسى في هذه اللحظات الحرجة أن نكون من المحسنين لنستأهل رحمة الله.. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]..



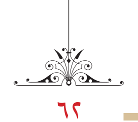
ما أجمل أن يصبح الخير فيك سجيّةً وطبعًا، فتجد نفسك تحسن وتفعل الخير تلقائيًّا وأنت في أحرج الظروف، لأنك تعودت ألا تعيش لنفسك بل تعيش للناس ولخدمة دينك.

ماذا عليك أن تفعل حتى تستأهل رحمة الله؟ ارحم..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) (أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح).

عاشرتُ أناسًا فرأيت منهم عجائب!.. أحدهم قد تعود على بذل الخير وعلى أن يعيش للناس ويسعى في تفريج كرباتهم، وهو في منطقته معروف بذلك. تعرفَ أثناء حبسه على شابٍّ قتل رجلًا فحكم عليه بالسجن المؤبد، ثم إن هذا الشاب استقام وصلح أمره في السجن، فنُقل إلى القسم الذي فيه متدينون. الأخ المحسن الرحيم تعرف على هذا الشاب من وراء الجدران.. لم يلتق به ولم ير وجهه، لكنه عرف أن الأخ القاتل يمكن الإفراج عنه إذا تصالح أهله مع أهل القتيل على مبلغ من المال.. فبدأ أخونا بالتنسيق مع زواره من أشقائه لجمع المال لهذا الشاب ليفرج كربته. لم يلهه السجن عن فعل الخير، بل هو يسعى -وهو أسير- في تفريج كرب الشاب. كان يوصي -من الأسر- بإعطاء مال من ماله لأرامل ومحتاجين. مثل هذا نحسبه يحس برحمة الله أينما كان وفي كل ظرف.. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

أخ آخر كان قد مرَّ بظروف صعبة للغاية، لكنه مع ذلك كان رحيمًا بإخوانه.. مرضت مرة فوضع رأسي في حجره وقرأ عليَّ قرآنًا ورقَاني وعيناه



تدمعان لرقة قلبه.. وهو ذاته الذي قال لي: (أريدك أن تستمتع بنعمة البلاء)! رضًا وطمأنينة.. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

ورأيت من كانوا يعبرون عن رحمتهم بوضع قطع من الطعام المقدم لهم في صرر ورميها للقطط المارة من فوق شبك غرف السجن!

تريد رحمة الله التي لا يمسكها أحد من الجن أو الإنس؟ تريد رحمة الله التي بها الفرح الحقيقي؟ عود نفسك على الرحمة والإحسان في كل الظروف. ألم تر أن الله تعالى امتدح من يؤثر إخوانه على الرغم من فقره فقال في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]؟ يعانون من بلاء الفقر ومع ذلك يحسنون.

ألم تر إلى قول النبي: ((مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ)) (رواه مسلم).

لقد زاد البلاء من فهمي لأسماء الله تعالى: الرحمن، الرحيم.. لأبني محبتي لله على فهم مُعَمَّقٍ لأسمائه وصفاته سبحانه.

خلاصة هذه المحطة:

ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء..

وحينئذٍ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر: ٢]..



لا تكتئب

ما زلنا نتأمل أسماء ربنا وصفاته لنحبه حبًّا لا يتزعزع.. تعالوا اليوم نتأمل مغفرة الله، وعفو الله، وتوبة الله على عباده.

أحيانًا نمر بظروف صعبة، فنتذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].. نفتش في أعمالنا فنرى أننا أخطأنا في حق الله كثيرًا.. نندم حينئذٍ.. وهذا الندم أمر مطلوب حتى يدفعنا إلى التوبة الجادة. هذا الندم ينبغي أن يكون إحساسًا مؤقتًا يدفعنا فورًا إلى إصلاح أخطائنا بإيجابية وحسن ظن بالله أنه سيعيننا ويقبل منا توبتنا ويعطينا فرصة أخرى لتصويب أوضاعنا..

لكن أحيانًا تسير الأمور مع الواحد منا بطريقة مختلفة! فبدلًا من هذه الإيجابية وحسن الظن بالله يتجمد عند مرحلة الندم واجترار الذكريات وجلد الذات ومقت النفس! فتفسد نفسه وتتكدر. ويبدأ يشعر بأن هذا البلاء عقوبة محضة لا رحمة فيها، قاصمة الظهر التي ليس بعدها قائمة! لأن الله تعالى بعدما أعطاه فُرَصًا في الماضي فلم يستغلها، قد مقته وسخط عليه ولن يعطيه فرصة أخرى!

ثم.. يتسرب إليه الشعور بالجفوة بينه وبين ربه سبحانه وتعالى! يحس بأن الباب قد أغلق والدعاء قد رُدَّ والشقاوة قد ضربت عليه ما امتدت به الحياة!

أخي، أختي.. احذر! هذه مكيدة من الشيطان، بل هي من أخطر مكايده! فهو يجعلك تتوهم في البداية أن لوم نفسك بهذا الشكل مطلوب لأنه اعتراف بالذنب.. لكن الشيطان أوقفك عند مرحلة اللوم والندم



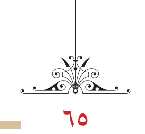
وجعلك تبالغ فيها ليقودك إلى توهم شيء خطير للغاية! تتوهم قسوة القدر ومن قدَّرَه سبحانه! وفي هذه اللحظة من سوء الظن ستحس بالضياع المخيف!

أنت عندما يشتد بلاؤك تشكو بثك وحزنك إلى الله.. عندما تنقطع بك السبل وتغلق دونك الأبواب، فإنك لا تجد ملجأ ولا منجى إلا إلى الله. فإذا قنَّطك الشيطان من رحمة الله وأوهمك أن بلاءك عقوبة محضة ومقت من الله، فإلى أين تفر؟ وإلى من تلتجئ؟ وإلى من تتضرع؟ ومن ترجو؟ ستحس بالضياع المخيف.. وهذا ما يريده الشيطان لك! طُرِد من رحمة الله فلا يحب أن يرى مرحومين أو طامعين في رحمة الله!

أخي، أختي، لاحظ أن الشيطان لن يأتيك من باب التشكيك في مغفرة الله هكذا مباشرة.. لن يقول لك: الله ليس غفورًا رحيمًا.. فهذه محاولة فاشلة بوضوح. لكنه سيأتيك من باب آخر! سيقول لك: (الله غفور، لكنك لا تستحق مغفرته لأنه أعطاك فرصا في الماضي ولم تستغلها. الله تواب، لكن أنت طبيعتك سيئة غير مؤهلة للإصلاح. الله عفو.. لكن أنت أفشل من أن تفعل ما تستحق به عفوه)!

ماذا يريد الشيطان من هذا؟ يريد أن يوقعك في الاكتئاب! الاكتئابِ الذي يشل إرادتك عن إصلاح وضعك والعودة إلى ربك؟ هناك مصطلحات علمية توصف بها أعراض الاكتئاب المَرَضي تجدها مبثوثة حتى في المراجع الأجنبية.

منها الشعور العميق بالحزن وشعور مبالغ فيه بالذنب (exaggerated sense of guilt)، وانعدامِ القيمة



(worthlessness) ، ونقصُ الدافعية (lack of motivation) ..

الشيطان يجمّدك عند مرحلة الإحساس بالذنب ويجعل التفكير بالذنب يسيطر عليك بطريقة وسواسية، ويُشعرك أنك عديم القيمة غير قابل للإصلاح، غير قابل لأن تكون من عباد الله الصالحين .. ليشل إرادتك للطاعة ودافعيتك للتغيير وهجرِ المعصية، ولتفقد السعادة والفرح بربك ومولاك سبحانه وتعالى. فهو لا يريد لك أن تحب ربك!

إخواني، إن الولد الذي يعاقبه أبوه يحب أباه إذا علم أن هذه عقوبة دافعُها محبة أبيه له وحرصه على مصلحته، أما إن ظن أن أباه يعاقبه بدافع الكراهية، فإن قلبه سيقسو تجاه أبيه.

ولله المثل الأعلى.. لا تسمح للشعور بأن البلاء عقوبة محضة، لا تسمح له أن يغزو قلبك. بل استحضر صورة الأب الذي يفرك أذن ولده المخطئ فإذا طأطأ الولد رأسه ضمه أبوه إلى صدره وأغدق عليه من حنانه.. ولله المثل الأعلى.

فاعتصم بحبل حسن الظن بالله التواب العفو الغفور.. إنه تعالى أرحم من أن يتربص بذنوب عباده المؤمنين فيبطش بهم ويخرجهم من رحمته ويحرمهم فرصة أخرى.. في الحديث الذي رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: ((أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أيْ رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا. فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب! اغفر



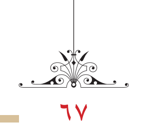
لي ذنـبي . فقـال تبـارك وتعـالى: أذنـب عبـدي ذنبًـا. فعلـم أن لـه ربًّـا يغفـر الذنـب، ويأخـذ بالذنـب .. اعمـل مـا شـئت فقـد غفـرت لـك)).

طبعًـا لا يـوحي الله تعـالى إلى عبـدٍ أن أذنـب وسـأغفر لـك. بـل معـنى الحديـث أنـه قـد سـبق في مشـيئة الله أن العبـد مهمـا عمـل، إن كان في كل مـرة يتـوب بصـدق ويعـزم علـى عـدم فعـل المعصيـة فـإن الله تـواب وسـيبقى يتـوب عليـه، غفـور، سـيغفر لـه، عفـو، سـيعفو عنـه.. وهـو يعلـم سـبحانه أن هـذا العبـد التائـب سـيذنب في المسـتقبل.

أخي، لا تقنـط مـن رحمـة الله أن يعينـك علـى التقـرب إليـه والتمتـع بالحظـوة عنـده.

إذا جاءك الشـيطان فقـال لـك: أنـت لا تسـتحق رحمـة الله. فقـل: نعـم، أنـا لا أسـتحقها لكنـه تعـالى سـيرحمني لأنـه أكـرم مـن أن يعامـل عبـاده بمـا يسـتحقونه! إن قـال لـك الشـيطان: لـن يعطيـك الله فرصـة أخـرى فقـد نجـاك مـن قبـل ولـم تحفـظ المعـروف.. فقـل: بلـى، سـيعطيني وأطمـع أن ينجيـني، فهـو العفـو الغفـور. إذا قـال لـك الشـيطان: إن الله يبتليـك عقوبـة لأنـه يكرهـك فقـل لـه: بـل يبتليـني ليطهـرني ويربيـني. إذا قـال لـك الشـيطان: أنـت أحـط مـن أن تسـتأهل رحمـة الله، فقـل لـه: رحمـة الله أوسـع مـن أن تضيـق عـني ولا تشـملني.

العبـد الفقـيرلرحمـة الله، والـذي يكتـب لكـم هـذه السـطور.. تفكـر أثنـاء أسـره في ماضيـه وأيقـن أنـه قصـر في حـق الله كثـيرًا.. كان الله سـبحانه وتعـالى قـد أعطـاه فرصًـا وابتـلاه ابتـلاءات أخـف ليصحـو مـن سـهوته، خاصـة فيمـا يتعلـق بترتيـب الأولويـات في حياتـه وأعمـال القلـوب.. لكـن هـذا العبـد



الضعيف عاد بعد النجاة إلى الأخطاء ذاتها، فجاءه بلاءٌ أشد. ندم وتألم وخاف من أن هذه العقوبة ستطول وتشتد ولربما تتجاوز استطاعته وتحمله، فزاد هذا من ألمه وندمه. وبدأ شعور سلبي يدبُّ إلى قلبه..

ثم شاء الله تعالى أن أقرأ حديثًا عظيمًا قرأته من قبل، لكنه هذه المرة جاء حبل نجاة من الله وبلسما لجراحي! الحديث رواه مسلم، وفيه أن الله عز وجل يُشفِّع بعض خلقه في إخراج أناس من النار الخير فيهم قليل جدًّا. ومع ذلك، رحمة الله ستشمل من هم دونهم أيضاً! فيقول الله عز وجل: ((شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فيُخْرِجُ مِنْها قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قدْ عادُوا حُمَمًا، فيُلْقِيهِمْ في نَهَرٍ في أفْواهِ الجَنَّةِ يُقالُ له: نَهَرُ الحَياةِ، فَيَخْرُجُونَ كما تَخْرُجُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ)).. سبحان الله! يخرج ربنا سبحانه وتعالى أناسًا بعدما طهّرهم بالنار ويدخلهم الجنة برحمته لا بأعمالهم.

هز هذا الموضع من الحديث كياني وأيقظني ونجاني من الاكتئاب الذي كان الشيطان يحاول إيقاعي فيه!
قلت لنفسي: (نعم أخطأت.. لكنْ أحسِب أن الله جعلني خيرًا من هؤلاء الذين أخرجهم. فإن كانت رحمة الله شملتهم فستشملني في الدنيا والآخرة).

فانقذفت في قلبي دفعة كبيرة من محبة الله والاطمئنان إلى رحمته، وعلمتُ أن الصوت الذي ظننته من النفس اللوامة كان صوت الشيطان! تسرب إلي من هذا الباب: باب محاسبة النفس! فتجاوزَبي محاسبة النفس المحمودة إلى الإحباط المذموم.



إخواني وأخواتي..

الله تعالى أرحم بكثير مما قد يهيئ لنا الشيطان في لحظات اليأس.. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]..

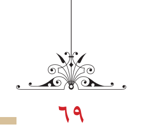
وبهذا زاد البلاء من فهمي لأسماء الله تعالى: التواب، العفو، الغفور.. لأبني محبتي لله على فهم مُعَمَّقٍ لأسمائه وصفاته سبحانه.

خلاصة هذه المحطة:

لا تدع الشيطان يوقعك في الاكتئاب..

بل حوّل ندمك

إلى قوة إيجابية للتقرب من الله التواب العفو الغفور.



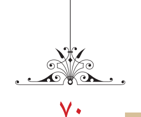
الله لطيف بعباده

لا زلنا نبني محبتنا لله على أسس لا تتأثر بالمتغيرات، أولها تأمل أسماء الله تعالى وصفاته، وقلنا أنك بهذا التأمل تحول البلاء إلى سبب لمحبة الله بدلًا من أن يزعزع البلاء هذه المحبة.
تأملنا حكمة الله وتودده وإعانته ورحمته ومغفرته.. في هذه المحطة نتأمل لطف ربِّنا اللطيف سبحانه.

قال ربنا عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩].. مهما اشتد بلاؤك فلا بد أن ترى من ربك تعالى لطفًا فيه إن أحسنت الظن به تعالى، بل وكلما أحسنت التعامل مع بلائك زادت فيه مظاهر اللطف وتعمق لديك فهم لطفه سبحانه.

تأمل لطف الله بنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم في أشد لحظات حياته حراجةً وإيلامًا.. عندما عاد من الطائف وقد سخر منه ساداتها ورماه بالحجارة سفهاؤها، وهو الآن في طريق العودة إلى مكة حيث تنتظره الشماتة والتكذيب والتضييق، وقد ماتت الوفية العطوف خديجة رضي الله عنها، وعمه أبو طالب الذي كان يحمي النبي ويفديه بنفسه وأولاده.. وزاد الألمَ أنّ أبا طالب مات كافرًا. لم يعد لرسول الله في مكة مأوى ولا منعة.. وكان هذا كله بعد عشر سنوات من البعثة، أصحابه فيها يعذبون ويشردون ويقتلون، ولا يدري النبي صلى الله عليه وسلم كم ستمتد هذه المعاناة..

كانت ساعات العودة من الطائف هذه أشق محطة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وصفها النبي بقوله لأُمِّنا عائشة في الحديث

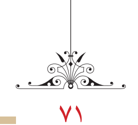


المتفق عليه: ((فانطلقْتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)).. قرن الثعالب منطقة تبعد حوالي ٣٥ كيلومترا عن الطائف.. سار النبي هذه المسافة في حر الشمس ووحشة الصحراء دون أن يشعر بها من شدة الهم!

ومع ذلك.. يأتي لطف الله تعالى ليخفف عن رسوله صلى الله عليه وسلم في أشد اللحظات حراجة.. في هذه اللحظة كأن الله تعالى وضع الكفار جميعًا في قفص الاتهام، وأعطى رسوله مطلق الحرية في القضاء لينفذ فيهم الحكم الذي يشاء.. ففي تتمة الحديث المتفق عليه الذي ذكرناه قال عليه الصلاة والسلام: ((فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك. فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبَيْن)).

سبحان الله! نفس النبي كسيرة بما لقي من أهل مكة والطائف، وقدماه لا زالتا تدميان.. فيجعل الله تعالى حبيبه بهذا العرض في مقام الحاكم نافذ الأمر، بينما الكفار جميعا كأنهم قيدوا بالسلاسل أذلة صاغرين.

ملَكان ينتظران كلمة من شفتي النبي تنهي المعاناة وتشفي الصدر وتذهب غيظ القلب.. انظر كم هو محمد صلى الله عليه وسلم كريم القدر عند ربه سبحانه! أليس هذا لطفًا عظيمًا من الله بحبيبه؟ عندما يرى رسول الله قدره عند ربه ومحبة ربه له وغضبه من أجله.



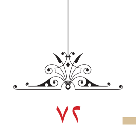
فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال للملَكين -بمنتهى السمو الإنساني والعظمة البشرية-: ((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)) (متفق عليه). بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

أليس هذا لطفًا عظيمًا من الله بنبيه؟!.. أن يسلِّمه زمام الأمر ويجعله صاحب القرار.. ثم النبي من نفسه يختار الصبر على أذاهم، لا عن عجز، بل عن عظمة ورحمة. فبدل أن يشعر النبي بالقهر وانعدام الحيلة تجاه هؤلاء المعاندين، يصبح كالأب الذي اختار هو بنفسه الصبر على هؤلاء الأولاد العاقين.

عندما تبتلى تأمل كيف أن بلاءك كان من الممكن أن يأتي أشد، ثم تأمل وجوه لطف الله تعالى بك.

في بلاء مررتُ به جعلت أتأمل وجوه اللطف.. استخرجت ورقة وقلمًا وكتبت قائمة بعنوان: (أمور خففت البلاء). وصلت فيها إلى ٣٧ أمرًا خفف الله بها هذا البلاء! ثم أضفتُ كثيرًا غيرها بعدها. وأنا أنصح كل مُبتلىً أن يفعل مثل ذلك، ولينظر إلى أثرها في نفسه.

يخفف الله عنك باللقاء برجل ابتُلي قبلك فصبر، ببسمة تراها على وجه أخيك، برعاية الله لعيالك ومن يهمك شأنهم، بمحبة أناس نبلاء ومساندتهم لك، بكتاب تقرأه، بذكرى جميلة، بأمل في الفرج ينبعث في قلبك، بصورة جميلة للمستقبل ترتسم في ذهنك، بتوسيع الله لك في جانب آخر من حياتك غير الجانب الذي ضاق عليك، بتعريضك قبل البلاء الكبير لبلاء أصغر يمرنك ويعودك على الصبر، بكشف الله قبح



ظالمك.. وغيرها الكثير.

ومن لطائف اللطف الرباني أنك تكون في بلاء تضيق به ثم يأتيك بلاء آخر جديد ينغص عليك ويزيد همك أكثر فأكثر.. فإذا فرج الله هذا الهم الجديد انشرح صدرك وهان عليك بلاؤك الأصلي!

ومن لطائف اللطف الرباني تلك الرؤى الطيبة المصبرة التي رأيت من نفسي ومن كثيرين حولي مذاقها الجميل وكم صبَّرت من مبتلى وهدَّأت نفسه..

قد تقول في نفسك.. لكن هناك بلايا لا نرى فيها لطفًا.. فأين اللطف فيما يحصل مع مسلمين في بلدان مختلفة يعذبون وتنتهك حرماتهم ويُقتلون بأساليب بشعة؟!

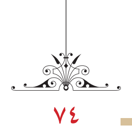
فالجواب: بل أعظم مظاهر اللطف نراها في بلائهم! ألا وهو تثبيتهم على الإيمان في لحظات تعذيبهم وقتلهم، بدلًا من موتهم على معصية. إنسان على وشك مفارقة الدنيا والرحيل إلى ربه.. مثل هذا لا يحتاج تخفيف البلاء، بل مضاعفته ليتضاعف الأجر، لأنه على وشك انقطاع العمل وطي كتاب الحسنات والسيئات. وعامة إخواننا هؤلاء ممن خلط من قبلُ عملًا صالحًا وآخر سيئًا كحالتنا، وممن تراوح إيمانه بين نشاط وفتور.. فأي لطف أعظم من أن يعصمه الله من شؤم سيئاته ويقذف في قلبه إيمانًا ينطقه بالشهادتين وبعبارات التفويض إلى الله (ما لنا غيرك يا الله) بينما كثير غيره يموت في بيته وقصره ميتة سوء ولا يوفق للنطق بهما؟!



روى أبو نعيم في حلية الأولياء أن عمر بن عبد العزيز قال: (مَا أُحِبُّ أَنْ تُهَوَّنَ عَلَيَّ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ لأَنَّهَا آخِرُ مَا يُكَفَّرُ بِهِ عَنِ الْمُسْلِمِ).

خلاصة هذه المحطة:

مهما اشتد البلاء، سترى أشكالا من لطف الله فيه.. فتأملها، وسيتعمق حينئذٍ فهمك لاسم الله (اللطيف)،
فتعيد بناء حبه سبحانه على أسس سليمة.



اشكر الذي ستر عيوبك عنهم!

نتحدث في هذه المحطة عن ستر الله على عباده.. صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إنّ اللهَ حِيِيّ سِتِّير)).

قد تبتلى، فَيَتَعاطف الناس معك و يدافعون عنك ويذكرون أفضل صفاتك ويثنون عليك ثناء عطرًا.. حينئذٍ، إياك أن تغتر بنفسك! بل تذكر أن هذا كله إنما هو من فضل الله الذي أظهر الجميل وستر القبيح. فلو أظهر أقبح ما عندك فلعلهم انفضوا عنك وقالوا عنك: (إنما ابتُلي بسوء أعماله).. وتصور كم سيكون مؤلمًا أن تسمع هذه الكلمة وكم ستزيد همك!

ليس هذا الكلام للعصاة فقط، فليس منا أحد في قلبه حياة إلا ويعلم من نفسه أشياء يحب أن يسترها الله تعالى. فـ((كل بني آدم خطاء)). فتش في نفسك:

- إن لم تكن تُسر معصية الآن فقد عصيت الله في ماضيك ولا بد، وكان من الممكن أن يطَّلع عباد الله على ذلك فتهتز صورتك في عيونهم بعد أن أحبوك، ولكن الله سترك.

- بل قد تكون تساهلت في تناقل ما ينسب إلى أخيك المسلم من نقيصة مفتراة عليه وتقول: العهدة على الراوي! فتسببت في أن يَشيع عنه ما ليس فيه مع أن الله سترك على ما فيك!

- إن لم تكن معصية فتقصير في طاعة، خاصة إن كان الناس ينظرون إليك على أنك قدوة.

– أو نقطة ضعف في شخصيتك يمكن أن يفرح بها خصومك، لكن الله سترها عليك.

– وكم من مواقف قد لا تكون فيها معصية لكن يمكن أن يساء تفسيرها فيسوء ظن الناس بك، لكن الله سترك.

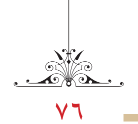
– وكم من مرض قلبٍ عندك وأفكار لا تحب أن يطلع عليها الناس إذ تهز صورتك لديهم، لكن الله سترك.

– أعود فأقول: يعرف هذا من نفسه كل من في قلبه حياة. فإن كنت لا ترى ستر الله عليك فهذه دلالة خطيرة أن قلبك قد قسا وما عاد يرى فضل الله بالستر عليك.. دلالة أن المعصية هانت عليك لهوان حق الله عندك.. ومما هونها أن الله لم يفضحك بها. فلو أطلع الناس عليها ورأيت نفورهم عنك وسقوطك من عينهم حينئذٍ لندمت عليها وعظمت في عينك. لكن لم يطّلع عليها إلا الله، وهان عندك حق الله، فهانت عليك معصيتك!

نبّهنا رسول الله إلى الستر الذي قد يُكشف من حيث لا نحتسب فقال: ((يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم؛ تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته؛ يفضحه، ولو في جوف رحله)) (صححه الألباني).

فكر وتذكر وتدبر.. كم مرة سترك الله تعالى؟ لتحب ربك السِّتِّير سبحانه.

عندما تكون في جنازة فتسمع ثناء الناس على الميت تصور كم مرة يعصي الإنسان ربه في مدة حياته.. ستين أو سبعين سنة، ثم عند الموت



يذكره الناس بخير ويستره الله.

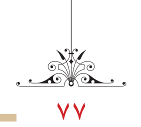
بل انظر إلى تواصل ستر الله على عباده المؤمنين يوم القيامة.. في الحديث الذي رواه البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله يدني المؤمن -أي: يوم القيامة- فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أيْ رب. حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته...)).

تصور!.. معاص سترها الله في الدنيا فلم يعلم بها إلا الله ثم صاحبها والحفظة من الملائكة، ثم سترها الله بعد وفاة صاحبها ثم سترها يوم القيامة فدفنت وكأنها ما كانت، ولا يُظهر الله إلا محاسن صاحبها فيعطى كتاب حسناته فينطلق ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: ١٩].. كيف أيها العبد لو لم يسترها الله؟ أكنت تقول للعالمين هاؤم اقرؤوا كتابيه؟

بل قد تعمل عملًا لله تعالى تُسر به لئلا يدخل قلبك الرياء.. فيقبله ربك عز وجل، ثم يُظهر هذا العمل على يد أعدائك فيزيد محبتك في قلوب الناس ويرفع قدرك عندهم أنك أسررت به، ويعود عدوك خاسئًا مدحورًا.

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فاشكر الله الذي فعل هذا بحسناتك ولم يفعله بمعاصيك وسيئاتك! وإن أثنى عليك المثنون.. وأثنَوا على صبرك على بلائك.. فتذكر على الفور أن تشكر الله الذي سترك، وتصور لو أن للمعاصي صغيرها وكبيرها رائحة تفوح أو علامة تظهر على جبهتك كيف سيكون الحال؟!



وتذكر قول أبي محمد الأندلسي القحطاني مخاطبًا رب العزة عز وجل:

أنتَ الـــذي صـوّرتني وخـلـقـــتني ... وهـــديتني لــشــرائع الإيـــمانِ

أنتَ الـــذي آويـتـــني وحــبـــوتني ... وهـــديتني من حــــيرة الخذلانِ

وزرعـــتَ لي بـين القـلــوبِ مـــودةً ... والعـطـفَ مـنك بـــرحمةٍ وحنانِ

ونـشـــرتَ لي في العــالمين محاسنًا ... وســـترتَ عـن أبـصارهم عصياني

والله لــو علِموا قــبـيـح ســريرتي ... لأبى الــســـــلامَ عليّ من يلقاني

ولأَعــرَضوا عـــني وملّوا صُحبتي ... ولَــبُــؤتُ بـعــدَ كرامــةٍ بـــهوانِ

لكنْ ســترتَ مـعــايبي ومــثالبي ... وحَلُمتَ عن سـقـطي وعن طغياني

فَلَكَ المَـحامــدُ والمـــدائحُ كلها ... بخـــواطـــري وجـــوارحي ولساني

ختامًا، عرفانا لله تعالى بالجميل أن سترك، وحتى يستمر ستره عليك.. استر على عباد الله.. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة)) (رواه مسلم)، وقال: ((من غسل ميتًا فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة)) (صححه الألباني وقال ابن حجر: حسن غريب). يعني قد ترى من الميت شيئًا يسوؤه لو كان حيًّا أن يطلع عليه الناس.. علامات سوء خاتمة، مرض، آثار وشم قبل الالتزام، حتى على مستوى قلة عناية بنظافة ملابسه أو جسده.. سترك الله فاستر على عباد الله. وكلما دعتك نفسك إلى الحديث عن عيوب الناس فتذكر ستر الله عليك.

خلاصة هذه المحطة:

تأمل ستر الله عليك في بلائك.. وكيف أنه لو أظهر ما ستر لشمت فيك من شمت.. وانفض عنك بعض من يتعاطف معك.

وإن أثنى الناس عليك أو على صبرك، فتوجه بالحمد إلى ربك الستير.



يائس.. مستوحش.. قلق.. خائف

أحبتي الكرام..

تصوروا معي حوارا يدور بين صديقين: زياد ورائد..

زياد: سمعت يا رائد أنك مقرب من شخص مهم.

رائد: صحيح، إنه ثري وذو نفوذ، لا تستعصي عليه مشكلة.

زياد: وما علاقتك به

رائد: إنه صديقي! على استعداد أن يقف معي في أية مشكلة. يؤكد علي دائماً ألا أطلب المساعدة من غيره.

ثم بعد أيام من هذا الحوار:

رائد: آآآآآه يا زياد.. أنا قلق!

-من ماذا؟

-وقعت في مشكلة من مدة، وبدأ صبري ينفد. أحس بالخوف من المستقبل، أحس بالوحشة، بالضياع، أحس بالضعف وأنا أقف وحدي أمام هذه المشكلة.

-عجيب أمرك يا رائد!

-ما العجيب في الأمر؟

-ألم تخبرني عن علاقتك بالرجل الثري ذي النفوذ المستعد لحل مشاكلك كلها!

-بلى

-هل ما زلت على علاقة به؟

-طبعاً.. إنه صديقي الحميم وينتظر مني طلبًا.



-زياد: اعذرني يا رائد.. أنت متناقض! هناك خطأ في كلامك. فإما أن صديقك هذا ضعيف محدود القدرات، أو أنك تدعي صداقته تفاخراً ولست على علاقة به أصلًا..

أخي.. أختي.. أليس زياد على حق؟ أليس رائدٌ متناقض في دعواه؟
قبل أن تتحامل على رائد.. انتبه.. أخشى أن نكون مثله!

ألسنا نعلن أننا نؤمن بالله وأننا نعبده، فنقرأ في صلاتنا في اليوم الواحد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ سبع عشرة مرة على الأقل ونستعين به فنقرأ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ سبع عشرة مرة، ونعتقد أن الله تعالى معنا ونتوكل عليه فنقول: (بسم الله توكلت على الله)، ونردد كثيرًا: (حسبي الله ونعم الوكيل) ونعلن أننا مسلمون قد أسلمنا أمرنا لله تعالى فنردد إذا أوينا إلى فرُشنا -كما علمنا رسول الله-: (اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك) (رواه البخاري)، ونردد صباح مساء: (رضيت بالله ربًا)، أي خالقًا رازقًا مدبرًا لأمورنا؟

هل نعني ما نقول؟ هل نحن بالفعل مؤمنون بالله تعالى مسلمون أنفسَنا وأمورنا إليه عابدون له مستعينون به متوكلون عليه راضون به مفوضون أمرنا إليه ملجئون ظهورنا إليه؟

إذن..
فالله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾[آل عمران: ٦٨].. ويقول سبحانه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾[الأنفال: ٤٠].. ويقول: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾[آل عمران: ١٣٩]..
ويقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦].. (قراءة عشرية صحيحة)
ويقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣]..



ويقول: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٥﴾[محمد]..
ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[البقرة]..

فكيف يسمح أحدنا لنفسه بعد هذا كله أن يحس بالخوف الشديد عند تعرضه لمشكلة؟! كيف يسمح لنفسه أن يحس بالضياع والقلق والوحشة وبأنه وحده أمام المشكلة؟! بل كيف يسمح لنفسه أن يبوح بهذه الأحاسيس أمام الناس؟ أين إيماننا بالله وإسلام أمرنا له واستعانتنا به وتوكلنا عليه واستشعار معيته؟ ألا نستحي من الله بعد ذلك أن نشكو الوحدة والضياع والضعف والقلق من المستقبل؟! ألسنا حينئذ متناقضين مع أنفسنا؟

إنه ليس لتناقضنا هذا تفسير إلا واحد من ثلاثة:
١. إما أنَّ ادعاءنا الإيمان والتسليم والتوكل والاستعانة ادعاء باطل، مع أننا نكرره في اليوم عشرات المرات! وحينئذٍ فيخشى أن نكون كمن قال الله فيهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح:١١]..
٢. أو أننا توكلنا على الله فخذلَنا واستعنا به فتركَنا وأسلمنا أمرنا إليه فضيعَنا.. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا! فهو القائل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾[النساء].. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦﴾[الروم]..
٣. والتفسير الثالث للتناقض أن هذا الشاكي المدعي التوكل كأنه يقول: (لم يكفني الله، فهو معي لكني أحس بالضياع)! وكأنه ينسب الضعف إلى ربه! تعالى الله عن ذلك.

فأيَّ تفسير تختار أيها «المتوكل» الشاكي؟
أحبتي في الله، دعونا نعرف عظمة الرب الذي نعبده ونستعين به:

-إنه العظيم العزيز الجبار المهيمن القوي المتين القاهر المسيطر وهو على كل شيء قدير.. فعيب أن نشكو الضعف وهو معنا !
-إنه الرحمن الرحيم الودود البر الشكور اللطيف الحليم القريب.. فعيب أن نشكو الوحشة وهو معنا !
-إنه السميع البصير السلام مجيب الدعاء.. فعيب أن نشكو القلق وهو معنا !
إنه الله ! ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦].. بلى والله.

فما فائدة إيماننا بأسماء الله وصفاته إن كان هذا الإيمان لا يُسَكِّن روعنا ويربط على قلوبنا في البلايا والمحن؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا) (رواه مسلم). فمن رضي بالله ربًّا يدبر أمره ويرعى شأنه فسيذوق طعم الإيمان وسكينته واطمئنانه. ومن وجد بدلًا من ذلك الجزع والفزع فلم يذق طعم الإيمان، ولينظر حينئذٍ في صدق رضاه بالله ربًّا !

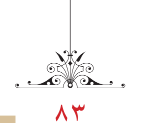
إنه الله لا يخذل من توكل عليه..
إنما نحن الذين قد لا نحسن التوكل.

أخي المبتلى.. لا تشكُ اللهَ إلى الخلق أرجوك! فليسوا ارحم بك من الله.. لا تشكُ اللهَ إلى الخلق أرجوك! لئلا تشمت بنا الأعداء الذين سيقولون حينها: أين معونة ربكم التي زعمتم. كما قال أسلافهم فيما حكاه الله عنهم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ﴾[الأنفال: ٤٩]، فردّ الله عليهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩﴾[الأنفال: ٤٩]..
كلما أردت أن تشكو الضياع والتوجس من المستقبل واليأس



والقنوط ونفاد الصبر، تصور أنه يجلس بجانبك ملحد يسمع ما تقول! ماذا سيقول لك إذا سمع شكواك؟: (ألم تكن تنصحني أيها المسلم أن أؤمن بوجود رب خلقنا ويرزقنا وأن أعبده وأستمد العون منه لأشعر بالطمأنينة وخيري الدنيا والآخرة؟ لا أرى من ذلك شيئًا! بل أراك كأنك تقول: أمري بيد الله، فأنا الآن قلق)!

ضمن هذه المعاني صُغت في خضم بلاء مررتُ به قصيدة بعنوان: (بحب الله أتصبَّر) كان لها أثر بإذن الله في تثبيتي وانشراح صدري إلى أن أذِن الله بانجلاء البلاء.. تجدها أخي/أختي في الصفحات القادمة.. فتأملها وتشرب معانيها.. نفعنا الله بها.



بحبّ اللّه أتصبّر

طالَ البلاءُ فوجهُهُ متجهمُ
وخبا الرجاءُ فيأسُهُ مستحكمُ

ويقولُ إني ضائعٌ مستوحشٌ
قلقٌ شديدُ الغم صدريَ مظلمُ

غرقان وحديَ في الهمومِ فليس لي
جارٌ يُجيرُ ولا صديقٌ يرحمُ

صحراءُ عُسريَ لستُ أُبصرُ حدَّهَا
فأسيرُ تلفحني الرمالُ وتلطمُ

إمَّا سعيتُ لدوحةٍ أبصرتُها
فإذا سرابٌ والظنونُ توهُّمُ

وأخاف أنْ تئِدَ الرزايا مُنْيَتي
فأعيشَ عمريَ والفؤادُ محطم

فسألتُه: أوَأنت تُنْكرُ ربَّنا؟
فأجابَ: بل إني حنيفٌ مسلمُ

عجبًا لأمرِك هل تبيتَ على الظما
إن كان عندك نبعُ ماءٍ زمزمُ

إنْ كانَ بيتُكَ بالجواهرِ زاخرًا
أتقولُ إنيَ ذو افتقارٍ مُعْدَمُ

كالعيرِ وسطَ البيدِ يقتلُها الظما
وظهورها من حَمل ماء تُقصمُ

ماذا تقولُ لملحد متسمعٍ
منكَ الشكاةَ وبثَّ ما لا تكظِمُ

فيقولُ: (هل يا مسلمون نسيتمُ
ما قد زعمتُم أن ربًّا معْكمُ

وبأنكم إذْ ما ذكرتُم وعدَه
سكنى الجنان رضيتُم وصبرتُمُ

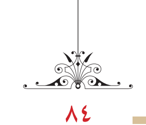
وبأن حبّ الله عصمةُ أمرِكم
وإذا توكلتُم عليهِ كفاكمُ

حتى السكينة قد زعمتم أنّها
حكرٌ عليكم و الشقا لسِواكمُ

مالي أراكم بعد ذلك قُنَّطًا
متذمرينَ بكم أسىً وتشاؤمُ

قد غرَّكم أتباعَ أحمدَ دينكمْ
وظننتموهُ لدى البلاءِ سيعصمُ

أين المحبة قد زعمتم نفعهَا
والخوفُ يعصفُ والوساوسُ تهجمُ



أمّــــا أنــــا فــوِدادُ ليــلى بهـجــتي ... ووصــالهـــــا مـن كل جـرحٍ بلـسمُ

عمــرانُ قــلـبي مــن محبَّـتِها فـلا ... شيءٌ يُـخــيـفُ ولا الهمــومُ تُزاحـمُ

إني إذن مــن بهــجــتي في حــبــها ... عــنـد القــيـاسِ بكـم أعــزُّ وأنعــمُ

لا تسـأـلــوني أنْ أديــن بدينــكم ... إني حظـيـتُ بـراحــةٍ وحُـرمتـمُ)

وكأنني بـك قـد سكتَّ مــن الحَيَا ... فمـضى الرقيـعُ مفاخـرًا يتهـكَّمُ

يا حسرتاه على العــبادِ إذا اشتكَوا ... قَـدَرَ الرحـيمِ لـدى الـذي لا يرحمُ!

يبـلـو لـتُـقـبِل راجـيًا متضـرعًا ... فـيـراك بعـدُ مـولـيًا تتـبـرمُ؟!

يَـبْـلُـو ليسـمـعَ منـك أنَّةَ مـذنب ... فـيـراكَ تـبـكي للعـبـادِ وتـألـمُ

الله ربـك كيفَ تـشـكـو ضـيعـةً ... شكواك عن سـوءِ الظنـونِ تترجـمُ

أتـظـنُّ رَبـك يبتـليـك إذن سـدىً؟! ... كلا فربُّ الـعـرشِ مَـنْ ذا أحـكمُ

أوإنْ رفـعــتَ يـدًا لـترجـوَ فـضلَهُ ... مـنعَ العـطايـا؟ إن ربيَ أكـرمُ

أو إنْ بـصــدقٍ قلتَ ربيَ كُنْ معـي ... خُـلِّيتَ وحـدَكَ؟ بل إلـهيَ أحـلمُ

أو قـلتَ حسـبي مَن عـليه توكلي ... لم تُكـف مــن شـرٍّ؟ فـربيَ أعـظمُ

فالله أعـلم كيف يـزجي مـنـحـةً ... في محــنــة والمـبتـلى لا يعـلمُ

لـكنَّ في الإنـسـان فـرطَ تعـجلٍ ... ولــرُبَّ أمـرٍ أنْ يـؤخَّـرَ أقـومُ

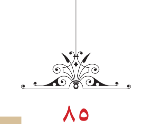
لا يُخلِـفُ اللهُ الـوعـودَ وإنــمـا ... إن نحـن لم نقبـلْ عليـهِ سنُحـرمُ

ربي قـريـبٌ للعــبادِ فـمنـهـمُ ... ســاعٍ إليه وجُلـهم مَنْ يُحجـمُ

كم دمعــةٍ في محـنـتي واريـتُـها ... أُغضي على جرحي وناريَ تُـضـرمُ

حتى أُعـلم مــن يـراني راضـيًا ... أن المحـبةَ عُـروةٌ لا تُـفـصـمُ

ما الـحبُ قـولَـك باللـسانِ تكـلفًا ... إنـي لَـصَـبٌّ مـغـرمٌ ومتـيمُ



بل حبُّهُ تسليمُ نفسكَ بالقضا ... وإذا دعاك لنصر دينك فالدمُ

كم بسمةٍ وسط العِدى أظهرتُها ... والخطب ينهشُ والرزايا تؤلمُ

وأُري بصبريَ مَنْ يريدُ شماتةً ... أني - وربي حافظٌ - لا أُهزمُ

فاصبرْ فليسوا يرتجون وترتجي ... أجرًا إذا هم يألمون وتألَمُ

إمّا يعزَّك لن تذوق مهانةً ... أو - إن يُهِنْها - ما لنفسك مكرم

واذكر نبيًّا مبتلىً بثلاثةٍ ... وكذا بعينيه فقال يفَهِّمُ:

للّهِ بثّيَ قد شكوتُ وغُمَّتي ... إني علمتُ من الذي لم تعلموا

فارتدّ بعد شديد عسرٍ مبصرًا ... والشملُ مجتمعٌ ويوسفُ حاكم

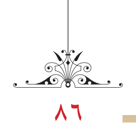
سبحانَ ربيَ كيف يُبرمُ أمرَه! ... فهو اللطيفُ لما يشاءُ ويحكمُ

ربّاه إنيَ قد نثرتُ كِنانتي ... وحملتُ أقلامي أصوغُ وأنظِمُ

لأذودَ عن حوضِ الشريعةِ من عدا ... ويُصَدَّ عمَّا قد أرادَ الألأمُ

وأقيمَ في قلب يلامسُ أحرفي ... لله صرحَ محبةٍ لا يُهدَمُ

فاكتبْ لعبدٍ قد أحبكَ صادقًا ... رؤياك إذ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ



لن تضيع وسط الزحام

ألا تحب أن تستأثر بصديق، بحيث تحس أنه لك، وأنك أعز الناس عليه فلن ينشغل بغيرك عنك؟ ألا تحس بقيمة هذا الصديق في المآزق؟ أظنك لاحظت أن مجرد بث همومك لهذا الصديق المتفهِّم لك والحريص عليك يشعرك بالراحة وتنفيس الهم.

قلت لأخي الأكبر مرة: هل معك ربع ساعة لأكلمك في مشكلة؟ فأجاب: (أنا كُلّي لك)! غمرَتْني هذه الكلمات وأنِستُ بها.

هكذا نحن.. نحب أن نستأثر بمن يتفهمنا ويعيش معنا آلامنا وآمالنا.. مجرد وجوده مصدر طمأنينة لنا.. فكيف إذا كان قادرًا على حل مشكلاتنا؟! كم ستستقر نفوسنا حينئذ..

في المقابل، قد تحس بالضياع عندما يزاحمك على هذا الصديق آخرون.. تخشى أن يشغلوه عنك. قد يعرف هذا الشعور من له إخوة كثيرون يزاحمونه على أبٍ واحد، من لها ضرة تزاحمها على زوج واحد، من له زملاء يزاحمونه على معلم واحد.. لم يعد الأب أو الزوج أو المعلم لكَ أو لكِ أنت وحدك.. فقد تُنسى أو تُنسَين في زحمة الآخرين.

فتش نفسك!
هل تسرب إليك شعور كهذا تجاه:
ربك سبحانه وتعالى؟!

لا أسألك عن قناعاتك العقلية، فهي تأبى ذلك ولا شك.. لكن



الإنسان قد يختزن في باطن شعوره هواجس تسبب له قلقًا فلا يدري مصدره، ومنها هذا الهاجس.. أنك ضعت أمام الله وسط الزحام!

إليك حقيقةً مؤنسةً مُطَمْئِنةً: الله سبحانه وتعالى مطلع عليك، قريب منك، يعلم بهمك، ويسمع دعاءك، ويفرح بتوبتك، ويدبر أمرك.. كل هذا كما لو كنتَ وحدك في هذا الكون لا يشركك فيه إنس ولا جان! ألم تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].. قال ابن كثير: (سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة).

كذلك في الحديث القدسي: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر).

فسبحان من لا يشغله سائل عن سائل، ولا مستغيثٌ عن مستغيثٍ.. ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].. فلا يضيع عنده أحد وسط الزحام.

لن تضيع في الزحام.. بل لك أن تتصور كما لو أنك تدعو الله وحدك وأنه يسمعك وحدك.. وأن معاني أسماءٍ من أسماء الله الحسنى تتجلى في ربوبيته لك أنت كما لو كنت وحدك.. فتظهر فيك آثار رحمة الله وقربه وعفوه ولطفه وكرمه وحلمه ومغفرته وإجابته ووُدِّه وهدايته وبِرِّه ورأفته ورزقه وكفايته وستره ورفقه وعطائه.. يظهر وسيظهر فيك هذا كما لو كنت وحدك في هذا الكون.. لذا، فلن تضيع في الزحام.

لاحظ كيف أن الله تعالى أفرد كلمة (الداعِ) في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

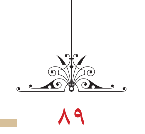


عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].. ففي هذا الإفراد من الإشعار بالعناية بدعائك أنت ما قد لا يكون في الجمع (الداعين إذا دعوني).. ليست استجابة مجملة عامة لمجموع الداعين بحيث تجزئ استجابته لأكثرهم عن الاستجابة لأفرادهم فردًا فردًا.. بل يجيب دعوتك أنت كما لو كنت وحدك، ولو دعاه تعالى معك في اللحظة نفسها مليارات بل ما لا يحصى من الإنس و الجن والملائكة.

كذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].. كل مضطر على حده كما لو كان وحده.. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم: ٦٤].. سبحانه فهذا شأنه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١]..

فادعُ الله وارجُه وأنس به وتأمل في نفسك آثار أسمائه وصفاته واستحضر معيّته كما لو كنت وحدك..

وتذكر دومًا: لن تضيع وسط الزحام.



علشاني

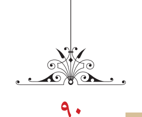
أم هيثم.. كانت تنسج البلوزة (الكنزة) الصوفية بيديها لابنها الذي قال لها في اتصاله الأخير: (أمي الحبيبة، لي عندك طلب: انسجي لي بلوزة صوف بيديك واطلبي من أبي أن يرسلها مع صديقي عماد، فطيارته يوم الخميس بعد القادم. أعرف أنك ستتعبين في نسجها، لكني أريد أن أتذكرك وأنا ألبسها.. سأحس أنك نسجت فيها حنانك بعطفك بحبك يا غالية.. سأحس وأنا ألبسها أنك تضمينني إلى صدرك.. باختصار يا حبيبتي: انسجيها.. علشاني).

أبو هيثم كان يعلق -شبه ممازح- وهو يرى زوجته منهمكة في النسج: (يعني يا سيد هيثم من قلة البلايز! تستطيع أن تشتري من عندك أحسن بلوزة بعشرين دينارًا بدل أن تُتعب أمك وترهق عينيها في الليل بطلبك هذا!).

أما أم هيثم فلم تتأثر أبدًا بما يقوله زوجها.. كانت كلمة هيثم: (علشاني) ترن في مسامعها.. كانت من حين إلى حين تقطع انهماكها في النسج للحظةٍ ريثما تكف دمعتها، دمعة الفرحة بتلبية طلب هيثم، أو دمعة الشوق إليه.

لقد كانت أم هيثم تنسج البلوزة باستمتاع مع أن بصرها وشيئا من اليُبس في أصابعها لم يساعداها.. لكنها كانت تستجمع قواها كلما تذكرت كلمة هيثم (علشاني)، وتقول لزوجها: (لا شيء كثير على هيثم.. ما دام هيثم طلب سأصبر).

تنقلب الأعمال الشاقة متعة عندما يكون الذي طلبها منا عزيزا إلى



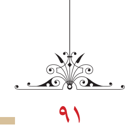
قلوبنا.. وبقدر حبنا له، تزداد لذة المعاناة من أجله. فكيف إذا كان الذي طلبها منا هو: الله سبحانه وتعالى! إن الله يطلب منك أن تصبر ابتغاء وجهه الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]..

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٧].. قال مفسرون في معناها: أي اجعل صبرك لله ومن أجله. فهل هناك صبر كثير على الله؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو أنَّ رجلًا يُجَرُّ على وجهِه من يومِ وُلِدَ إلى يومِ يموتُ هرمًا في مَرْضاةِ اللهِ تعالى لحقَّرَه يومَ القيامَةِ)) (حسنه الألباني).

تصور! لو أنك منذ ولادتك إلى يوم وفاتك في سن كبير هرمًا أمضيت هذه الثمانين أو التسعين عامًا تُجر على وجهك في سبيل الله تعالى لاحتقرت عملك هذا يوم القيامة ووجدته لا شيء عندما تعلم عظمة الرب الذي من أجله ابتُليت وترى إكرامه لك على صبرك من أجله!

كلما أحسستَ بطول البلاء ونفاد الصبر قل: (بما أن الله تعالى طلب أن أصبر، سأصبر.. ابتغاء وجه الله. فالله تعالى أعظم محبوب، وليس شيءٌ كثيرًا على الله).

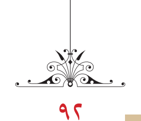


قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

كنت أتساءل عن مصدر الطمأنينة في هذه الآية؟ ما الذي يجعلنا نطمئن حين نعلم أنه ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]..؟ تعالوا نتأمل الآية كلمةً كلمةً، ونتصور حالات افتراضية غير صحيحة ونقارنها بالواقع لنعرف الجواب:

١. فلنقف أولا مع كلمة (الله) في (كتب الله لنا): تصور أنك مأسور وتنتظر حُكْمًا من قاضٍ من قضاة الأرض في جلسة ستُعقد في موعد قريب محدد، وهذا الحكم هو أنك إما أن تبقى تحت تصرف الله تعالى أو تنتقل منه إلى تصرف البشر! إما أن تبقى تحت تصرف الله بصفاته من حكمة ورحمة وعدل ولطف ورأفة وحلم، وإما أن تنتقل إلى تصرف من لا يشارك الله تعالى في صفاته هذه! حينئذ من حقك أن تقلق وتخاف بالفعل. أما حين توقن أن كل ما يصيبك هو مما كتب (الله) تعالى بصفاته، وأنك تنتقل من تصرف الله إلى تصرف الله، وأن البشر الذين يظهرون وكأنهم متحكمون بك ليسوا سوى أدواتٍ لأقداره تعالى، مقهورون لحكمه سبحانه، فحُقَّ لك حينئذٍ أن تطمئن.

٢. فلنقف مع كلمة (كتب): أدركتَ أن ما يصيبك هو من تصرف الله بك، لكن تصور أن هذا التصرف ليس بقَدَرٍ سابقٍ! تصور لو أن الملائكة ينزلون كل يوم بمجموعة من المصائب فيرشونها على أهل الأرض فتصيب من تصيب، ومجموعة من النعم كذلك! حينئذٍ من حقك أن تقلق وتخاف بالفعل. لكن حين توقن أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة (كما في الحديث الصحيح)، عالـمًا بما سينتج عنها، لا أن تصرفاته بخلقه عز وجل ردود أفعال على



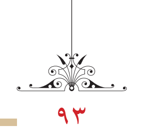
أحداث خفيت عليه من قبل تعالى سبحانه عن ذلك، وأنه كتبها بحكمة ورحمة، فحُقَّ لك حينئذٍ أن تطمئن.

٣. ثم لنقف مع كلمة (**لنا**): استخدام حرف اللام في (**لنا**) مُشعر بأن هذه الأقدار هي لصالحنا، مهما بدا خلاف ذلك: **(عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)**.

٤. تعالوا نتابع مع الآية: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ [التوبة: ٥١]: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾: والمولى لا يُسلِم وليه لأعدائه، والمولى لا يرضى لوليه الذل والهوان، كما في قنوت النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنه لا يذل من واليت)**.

٥. تتمة الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾: إن آمنا بكل ما سبق فُحق لنا أن نتوكل على الله، أي نفوض له تدبير أمورنا بطمأنينة ويقينٍ.

والله تعالى أعلم..



ماذا لو؟؟

ماذا لو كانت المصائب والمسرات تصيب الناس بلا تقدير، بل تدور خبط عشواء، فقد تصيبك وتترك غيرك لا لحكمة ولا لسابق علم؟

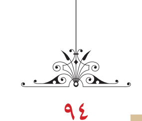
ماذا لو أن الله وكل تقدير الأقدار إلى ملائكة لا نعلم عن رحمتهم ولا حكمتهم ولا عدلهم؟

ماذا لو كانت البلايا منفكة عن الجزاء، بحيث تُبتلى ويُنعم غيرك، ثم تستويان في الجزاء والمصير إن استوى عملكما، وضاع صبرك على بلائك سدىً؟

أسئلة غريبة، أليس كذلك؟ لكني وجدت فيها إجابة لسؤال قديم لطالما كنت أتساءله في نفسي، وهو: ما المعنى في أن يصبر الله أصحاب المصائب بأن مصائبهم هذه مقدرة من قديم؟ كقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[الحديد: ٢٢، ٢٣]..

إذن فهذه المصائب ليست خبط عشواء، بل مقدرة قبل ظهورها، فلا داعي للأسى. والله لم يوكل أحدًا -لا نعلم عنه شيئًا- ليقدرها، بل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[التغابن: ١١].. الله الذي نعلم أنه:

١. عليم يجعل في المحن مِنحًا من حيث لا ندري: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة: ٢١٦]..

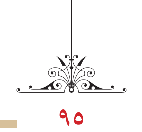


٢. ونعلم عنه أنه ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[الشورى: ١٩].. فيقدر ما يقدره علينا بلطف.

٣. ونعلم عنه أنه حكيم كما قال يوسف عليه السلام -بعدما رأى فتوحات ربه عليه في البلاء-: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾[يوسف: ١٠٠]..

٤. ونعلم عن عدله وفضله إذ -كما قال يوسف عليه السلام أيضًا- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠]..

إذن فعندما نسمع الآيات التي تتكلم عن القدر، والأحاديث مثل ((واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) فلنعلم أنها تذكرنا بحقيقة أن هذه الأقدار إنما قدرها الله الذي نعلم عن علمه وحكمته ولطفه ورحمته وعدله، فلنسلم له أنفسنا بطمأنينة.



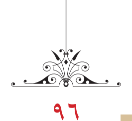
مقدمة عن النعم

لا زلنا نتأمل: كيف نحب الله تعالى بلا شروط؟ كيف نتفنن، فلا نمنع البلاء أن يؤثر على حبنا لله فحسب، بل نحوله إلى سبب لزيادة حبنا لله؟ كيف نبني حبنا لله على أسس سليمة لا تهتز ولا تتأثر بالمتغيرات؟

في المحطات السابقة ركزنا على أول أساس من هذه الأسس، وهو تأمل أسماء الله وصفاته. تأملنا بعضها، ونترك لك أن تتأمل سائر أسمائه سبحانه وصفاته..

الأساس الثاني الذي سنتأمله ونحاول اكتسابه، هو تأمل نعم الله التي أنعم بها علينا في ماضينا وحاضرنا، لنستشعر أننا، حتى وإن حُرمنا من بعض النعم، فقد تمتعنا بنعم أخرى كثيرة لكننا نسيناها، ولا زال لدينا نعم كثيرة، لكننا لا نستشعرها.

هذا الموضوع العظيم المرقق للقلوب: نعم الله.. نستعرضه في الصفحات التالية..



حب بلا رجعة

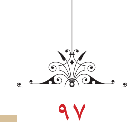
هناك عبارات جميلة يقولها البشر لبعضهم:
(لقد غمرتني بإحسانك. لن أنسى لك جميلك ما حييت).
(حبي لك وصل مرحلة اللارجعة! مهما فعلتَ في المستقبل سأظل أحبك، ولن أسمح لشيء أن يزعزع محبتي لك).
(أحس بالحياء تجاه محبتك الصادقة لي واهتمامك بي! لا أستحق منك ذلك كله! لا أملك إلا أن أعدك بأن أكون وفيا لك ما حييت).

هذه العبارات تتردد في صدورنا، تنساب على ألسنتنا، ترتسم على وجوهنا.. تجاه من يحسن إلينا المرة بعد المرة بغير دافع من مصالح دنيوية، وإنما لأن مودته خالصة، ونفسه كريمة، وقلبه كبير.

عندما نعيش هذه العبارات وندبرها على أذهاننا فإننا نحب أنفسنا أيضا ونحترمها! لأنه يَسُرُّنا أن نكون أوفياء، ودودين، معترفين بالجميل، رقيقي القلوب، مرهفي المشاعر.

أذكر أنني في مرة من المرات تردَّدَت هذه العبارات في كياني تجاه أخي الأكبر، الذي أحسن لي طوال حياتي، وعندما وقعت في ظرف صعب أبعدني عن عائلتي، لم يهدأ لأخي بال ولم يذق طعم الراحة ونذر نفسه وسعى في كل اتجاه حتى يرفع الظلم عني. كان يتفنن في سد فراغي عند أولادي. كان يأتي لزيارتي مثقلًا بالهموم، لكنه مع ذلك كان يتمالك نفسه ويتصنع الابتسامة ويختار العبارات ويستحضر الأخبار السارة ليحافظ على معنوياتي مرتفعة.

بعد إحدى زياراته لي وأنا بعيد عن عائلتي، ابتسم ابتسامة المغادرة



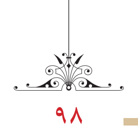
وهو يقول لي: (دير بالك على حالك. إن شاء الله الفرج قريب).. نظرت إليه وهو يفارقني ويذهب، وبدأَتْ تلك العبارات تتردد في صدري تجاه أخي: (أحبك، لقد غمرتني بإحسانك، لن أنسى لك جميلك ما حييت، حبي لك وصل مرحلة اللارجعة! مهما فعلتَ في المستقبل سأظل أحبك، لا أستحق منك ذلك كله! سأكون وفيا لك ما حييت).

شعرت بالسعادة والرضا عن النفس وأنا أفكر في هذه العبارات.. ثم فجأة.. أُلقي في روعي سؤال: من الأَولى بعبارات كهذه؟ من الأَولى بعبارات كهذه؟

أليس هو..... الله سبحانه وتعالى؟
ألم يغمرنا بإحسانه؟ ألم يثبت لنا عنايته بنا وتكريمه لنا أن جعلنا مسلمين وخاطبنا بكلامه ودلنا على ذاته وعرفنا بصفاته واكتنفَنا بعطاياه في كل لحظة وأخبرنا عن جنة أعدها لنا ودلنا على سبيلها وتحبب إلينا بكلامه ونِعَمِه ومغفرته لزلاتنا وفرحه بتوبتنا؟

كم مرة سألتَ الله فأعطاك؟ كم مرة وقعت في كرب فنجاك؟ كم سَنَةً ستر قبائحك عن الناس وأظهر لهم محاسنك؟ إلى قلب كم واحد من خلقه حببك.. كم مرة نجاك من شماتة أعدائك.. بل حتى البلاء.. ألا يَسُرُّك إن ارتضاك الله لجواره في دار كرامته فأراد تطهيرك لتليق بهذه المنزلة، فبدلًا من التطهير بالنار ابتلاك فطيبك وطهرك؟

ألا يكفي هذا كله في أن نبقى أوفياء لله ما حيينا؟ ألا تُشعرنا هذه الرعاية والتكريم بالحياء منه سبحانه؟ هل سنبقى كلما امتحن الله حبنا له ببلاء دنيوي يتزعزع هذا الحب ويتعكر صفو مودتنا؟! هل سنبقى



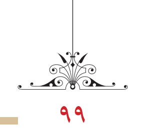
نفشل في الامتحان؟!

متى ستقول: يا رب! غمرتني بإحسانك، لن أنسى فضلك علي ما حييت! يا رب! مهما قدَّرت علي، ومهما ابتليتني، سأبقى أحبك، بل سيزيد حبي لك، ولن أسمح لشيء أن يعكر صفو محبتي لك.

أخي، يا من أنعم الله عليك بالكثير في ماضيك وحاضرك.. لكنك لن تتذكر الماضي وتستشعر الحاضر إلا إن كنت وفيًّا معترفًا بالجميل.. بعد هذا الإنعام الإلهي، إن لم تصل محبتك لله مرحلة اللارجعة، فمتى تصل؟ وأي شيء يوصلها؟!

جميل أن نكون أوفياء أصحاب حياء شكورين ودودين معترفين بالإحسان والامتنان مع البشر.. لكن الأجمل والأَولى والأحق أن نكون كذلك مع الله تعالى خالق البشر، الذي ما أحسن إلينا مُحسن إلا بتقديره تعالى ولطفه وستره على عيوبنا وتحبيبنا إلى خلقه.

فهكذا كن مع الله.. حب بلا رجعة..



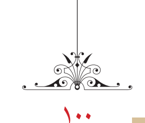
ليس لك على الله في الدنيا حقوق

من أهم الحقائق التي تطمئنك وتصبرك وتزيد حبك لله: ليس لك عند الله في هذه الدنيا «حقوق»!

في الحديث الذي رواه أبو داود وصححه الألباني عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت له: (وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله أن يُذهبه من قلبي). فقال: (لو أن الله عذب أهل سماواته، وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. ولو أنفقت مثل أُحُدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار).
قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت، فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك.

كم ستستريح يا أخي، وكم ستستريحين يا أختي، إذا استقر هذا المفهوم في نفسك واطمأن إليه قلبك: ليس لك على الله في هذه الدنيا شيء هكذا كحقٍّ تتوقعه بمجرد وجودك! ولو حرمك كل شيء فليس بظالم لك سبحانه.

فإذا كان العبد لا يستحق الجنة والنجاة من العذاب بعمله الذي يعمله الا برحمة من الله وفضل، فكيف يستحق نعيم الدنيا الزائل لمجرد وجوده فيها؟! فلله علينا حقوق لا نؤدي شكرها مهما عملنا. وأقل نعمه تستحق منا أكثر مما نؤدي من طاعات وقربات.



وإنما أوجب الله على نفسه لعباده المؤمنين الجنة.. ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾[الفرقان: ١٥،١٦]..

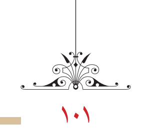
نعم، أوجبها الله على نفسه لعباده المؤمنين فضلًا منه وكرمًا، وجعل لما يطلبه الإنسان في هذه الدنيا أسبابًا وسُننًا، من أخذ بها نال.. وأمر عباده بأوامر، ووعدهم إن قاموا بها بوعود، كالرزق لمن اتقى والنصر لمن ينصر ربه، والتمكين لمن آمن وعمل الصالحات. فمن لم يحصل من هذا شيئًا علم أن القصور في توفيته أمر ربه الذي عليه وعد وعده، أو أنه في سنة البلاء التي وعد الله بها أيضًا: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾.

أما أن تفترض أن لك عند الله أن يعطيك لمجرد وجودك! فما هذا إلا لعدم إدراكك مقام العبودية أمام مالك الملك سبحانه!

إذا استقر هذا في نفسك فإن نقطة الانطلاق في افتراضاتك هي اللاشيء. فإن أنعم الله عليك بالصحة وابتلاك فيما دونها من مال وأهل وغيرها فأنت تتذوق نعمة الصحة وتعترف لله بالجميل.

أما إن كانت نقطة الانطلاق هي أن من حقك على الله أن يعطيك كل شيء فإنك لن ترى إلا النصف الفارغ من الكأس، وستذهب نفسُك حسرات على كل نعمة فقدتها وإن أنعم الله عليك بكل ما سواها. وهذه مصيبة كثيرين، أنهم يرون من «حقهم» على الله أن يعطيهم المال والصحة والأمن و... و... و... فإن حُرموا شيئًا من هذا حاك في صدرهم تجاه ربهم تعالى ما لا يليق!

عندما تستذكر أنه ليس لك على الله شيء وأن الأصل في الدنيا أنها



دار ابتلاءات، فإنك سترى المسرات مصبرات بدلًا من أن ترى البلاءات معكرات.

فمثلًا قد تكون في غمرة التجهيز للاحتفال بمناسبة سعيدة، فيحصل حادث لأحد العزيزين عليك من أهلك! إن افترضت الكمال في حياتك فسترى هذا الحبس معكرًا لاحتفالك يفسد بهجته. أما إن استقر في نفسك أن هذا الحادث بلاء من البلايا المتوقعة في الدنيا –لأن الأصل في هذه الحياة الابتلاء– فسترى مسرة الاحتفال مُصَبِّرة مُنفِّسة عن شيء من الهم الذي لا بد منه..

فانطلق في حياتك وأنت متذكر جيدًا لهذه الحقيقة: ليس لك عند الله في هذه الدنيا حقوق.

ليس ما ينقصك هو أهم شيء

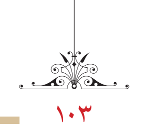
من طبع النفس البشرية أنها يضعف لديها الشعور بالنعم المستمرة فتصبح فاترة باهتة في الحس. وإذا فقد الإنسان القناعة فإنه لا يفكر إلا فيما ينقصه من نعم حتى يشعر أن هذا الذي ينقصه هو أهم مقومات الحياة البشرية، وأن حياته لا طعم لها بدون هذا الذي ينقصه، تعال نستعرض أمثلة من ذلك:

-الفقير يقول: ما قيمة الحياة دون مال؟! إن كنت لا أستطيع أن أوفر لأولادي ملابس جديدة في العيد، فينكسر خاطر ابنتي الصغيرة ويرتد بصرها حسيرًا عندما ترى بنات الأقرباء يلبسن الجديد الفاخر ويمسكن بشنطة العيد في أيديهن، وهي بثياب وشنطة قديمة.. فالمال كل شيء.

هذا الفقير معافى في جسده متزوج قد رزقه الله أولادًا لكنه لا يرى هذه النعم لم يعد يفكر إلا فيما ينقصه.

- المريض يقول ما قيمة الحياة دون صحة سليمة؟ ماذا تنفعني أموالي إن كان الطب قد عجز أن يجد لي شفاء لمرضي الذي يزداد حدة بمرور السنوات فيخيم على حياتي كابوس الارتماء مقعدًا لا أستطيع خدمة نفسي يوما من الأيام.. أي طعم للحياة مع ذلك؟! ليتني أفقد مالي كله وأنعم بالصحة، فالصحة هي كل شيء.

- العزباء التي لم ترزق زوجًا تقول ما قيمة الحياة دون إشباع عاطفي؟ ماذا تنفعني شهادتي ومالي وصحتي إن لم أجد من آنس له ويأنس لي؟ إن



لم يكن لي شريك روح أملأ عليه حياته ويملأ علي حياتي؟ ليتني أفقد كل شيء وأنعم بزوج يجعل لحياتي معنى.

- **السجين** لفترات طويلة يقول: ما قيمة الحياة دون حرية؟! إني أُدفن قبل موتي! ماذا نفعني مالي وصحتي وتعليمي؟ الحرية هي كل شيء.

- **العقيم** يقول: ما قيمة الحياة دون أولاد يملؤون البيت صخبًا وبهجة؟ ماذا نفعني مالي صحتي إن كنت أنا وزوجتي لا نجد في بيتنا كل ليلة إلا الصمت والهدوء القاتل؟ ما قيمة الحياة إن كانت ستنتهي بموتي فلا عقب لي يحمل اسمي؟ لمن أعمل وأجمع المال ولمن أتعب؟

- **دميم الخِلقَةِ** يقول: ما قيمة الحياة إن كانت الأنظار تزدريني؟ ما قيمتها إن كنت أكره رؤية نفسي في المرآة كل صباح؟! ماذا نفعني مالي وشهادتي وصحتي بعد ذلك؟ ليتني أفقد كل شيء وأنعم بمظهر حسن.

وهكذا؟! يزدري أكثر الناس -إلا من رحم الله- نعمة الله عليهم، ويظن كل مبتلى أن ما ينقصه هو أهم شيء أو كل شيء.

فمن أصحهم شكوى؟ الفقير أم المريض أم العزباء أم السجين أم العقيم أم الدميم؟ هل المال هو كل شيء؟ أم الصحة؟ أم الزواج؟ أم الذرية؟ أم الجمال؟ أم الحرية؟ إما أن يكون أحد هذه الأشياء هو أهم شيء أو كل شيء، أو أنها جميعًا دعاوى باطلة.

والحق أنها دعاوى باطلة! منشؤها **نقص القناعة**، والذي يضخم حجم ما ينقص الإنسان بينما يجعل النعم العظيمة التي يتمتع بها فاترةً باهتةً في حسه. ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ

عَلَىٰ بَعۡضٍۚ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)).. فإنه لنُكران جميلٍ أن ترى نعم الله الكثيرة عليك لا شيء بينما ترى ما ابتلاك بفقده هو كل شيء! ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] لذا فإنك ترى آيات كثيرة في القرآن تذكر بنعمة الله وتستحث الشكر عليها.. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: ٣٨] وإن أقبح الأوصاف في القرآن لمن لا يقدر النعمة، لفظة الكفر ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢].. إن هناك نعمًا عظيمة لا نلاحظ وجودها أصلًا ولا تحظى ببيان أهميتها في الدروس والمواعظ والخطب، مع أنها لا تقل أهمية عما ذكر أعلاه من نعم. مثال ذلك نعمة «الدافعية».

أيُّنا سمع درسًا أو خطبةً أو قرأ في كتاب عن نعمة الدافعية؟ إذا أردت أن تعرف أهميتها فانظر إلى مريض الاكتئاب، ذلك المرض الذي كثيرًا ما يكون غير معروف السبب ويتطلب معالجات مكلفة قد يتأخر مفعولها.. وهو يختلف عن الحزن الذي يعتري أي إنسان بشكل عارض.

سل مريض الاكتئاب كيف فقد الدافعية للحياة، فلا دافعية للأكل والشرب، ولا للتعلم والعمل، ولا لعلاج نفسه ولا من هو مسؤول عنهم، ولا لمؤانسه زوجه وملاعبة أطفاله.. الحياة كلها بلا طعم و لا لون و لا رائحة ! لا يشتهي ولا يتمنى شيئًا إلا الموت!

فيا من ترى المال كل شيء، أتتمنى أن تؤتى المال وتفقد الدافعية؟ يا من تتمنين أن تفقدي كل شيء مقابل أن تعيشي في عش الزوجية، هل ستكونين سعيدة إن رزقت خير زوج وفقدت -لا أقول كل شيء- بل فقدت الدافعية فقط؟

لـذا أخي وأخـتي، علينـا الحـذر مـن ازدراء نعـم الله علينـا، علينـا أن نستشـعر هـذه النعـم و نجـدد الابتهـاج بهـا في نفوسـنا ونحـن نتلـوا مثـل قولـه تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

يبقـى السـؤال المهـم: هـل هنـاك نعمـة غـيرمـا ذكـر يمكـن اعتبارهـا كل شيء في هـذه الحيـاة؟ نعـم! إنهـا نعمـة الإيمـان.. فبالإيمـان تصـبرعلـى مـا ابتليـت بـه مـن فقـد بعـض النعـم، فقـد يكـون صـبرك نعمـةً أكـبرممـا فقـدت! مصداقًـا لقـول النبي صلـى الله عليـه وسـلم: (عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له) (رواه مسلم).. بينمـا بانعـدام الإيمان تصبح النعم بلاءً و استدراجًـا وسـببًا في طـول الحـساب وشدة العـذاب: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران] .

لقـد نـجّى الله يوسـف عليـه السـلام مـن فتنـة الديـن، وهـي محاولـة النسـوة إغـواءه، وابتـلاه تعـالى بالسـجن، وهـو بـلاء دنيـوي. واعتـبرالله ذلـك فضـلًا علـى يوسـف و استـجابةً لدعائـه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف] ، مـع أنـه قـدّرعليـه سـجنًا طويـلًا.. نعـم! فـإذا سَـلِمَ الديـن فـإن بلايـا الدنيـا تنقلـب مِنحًـا للدنيـا والآخـرة، كمـا حصـل مـع يوسـف عليـه السـلام.

فاللهم ارزقنا الإيمان و القناعة و الصبر.

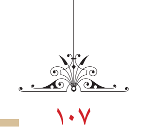
تعايش مع الوضع الجديد

أصيب الأب بمرض يضعف قدرته بالتدريج.. أخبر الطبيب العائلة أن المرض مزمن وأن العلاجات إنما هي لإبطاء تدهور الحالة فقط. رفض الأبناء هذه الحقيقة! ذهبوا إلى طبيب ثانٍ وثالث، أجروا تحاليل متقدمة، أوصوا ابن عمهم في كندا بإرسال دواء جديد، طرقوا باب العلاج الطبيعي، جربوا الأعشاب.. ولكن أباهم يتراجع شهرًا بعد شهر.

بكوا عندما تعثر أبوهم للمرة الأولى إنذارًا ببدء مرحلة فقدان التوازن، انحبست الدمعة في أعينهم عندما فشل للمرة الأولى في رفع اللقمة إلى فمه، تجهمت وجوههم حزنًا عندما بدأ يحتاج من يساعده في قضاء حاجته..

في هذه المحطات كلها كانوا يقولون: (ليس هذا أبانا الذي عرفناه.. نريد أبانا الذي عرفناه! نريد أبانا القوي النشيط.. لقد كان أبونا يقيل عثراتنا.. كان هو يلاطفنا ويطعمنا بيده على المائدة.. لقد كان وكان... أبونا لم يهرم بعد.. ما زال في الخمسينات.. أعمامنا الذين يكبرونه سنًا في صحة وعافية. لعلها سحابة صيف ستنقشع.. لعل الأطباء جميعًا مخطئون في التشخيص.. نريد أبانا الذي كان).

كان الأب يقرأ ذلك كله في عيون أبنائه وقسمات وجوههم فيحزن لحزنهم.. ولكي يُرَضِّيَ نفسه عن قدره ولا يزداد همًّا أصبح يتجنب النظر في وجوههم أصلًا! لم يعد يتحمل رؤية الإشفاق المختلط بالأمل الوهمي.. لقد مرت سنوات ولا زال الأبناء ينطحون صخرة الواقع، وتذبل زهرة قلوبهم وهم يرون أباهم يذبل.



إننا نُتعب أنفسنا عندما نرفض واقعًا جديدًا سيستمر؛ عندما نرفض التعايش مع هذا الواقع، عندما نصر على أننا لا نريد أي «خسائر» في هذه الحياة الدنيا!

أبناء هذا الرجل المريض رفضوا حقيقة أنهم قد ابتلوا بمرض أبيهم الحبيب مرضًا مزمنًا. أخذوا بالأسباب المادية كلها، وهذا شيء محمود.. لكنهم بدؤوا يخطئون عندما بدا واضحًا أن أباهم لن يعود كما كان بحسب السنن المعهودة، فرفضوا هذه الحقيقة لأنها مُرّة، لم يتعايشوا معها ولم يتقبلوها.. فتعبوا وأتعبوا أباهم معهم!

عندما نُبتلى ببلاء فإنه لا بأس بأن نسعى في كل اتجاه شرعه الله، ونطرق كل باب ممكن، وفي قلوبنا الأمل بدفع هذا البلاء..

لكن هذا السعي الحثيث ينبغي أن يكون مرحليًّا مؤقتًا.. فإذا بدا أن هذا البلاء قَدَر ثابتٌ مستمر اختاره الله لنا، فإن من الحكمة أن نعيد توجيه جهودنا من مدافعة هذا البلاء إلى التعايش معه.

كثيرون هم من سيرفضون هذا الكلام باعتباره دعوة للاستسلام أمام البلاء.. فتعالوا أيها الأحبة نناقش الأمر بتروٍّ: أيهما أفضل؟! أن يقول أبناء هذا الرجل المبتلى لأبيهم: (اصبر يا أبانا.. لعل مرضك هذا يكون سببًا في دخول الجنة. ماذا يضيرك إن كنت ستنسى تعب الدنيا كله بغمسة في الجنة؟! ثم نحن أولادك أجزاء منك؛ نحن يداك ورجلاك وسمعك وبصرك.. ما عليك الآن إلا أن تستريح وتأمرنا بما شئت لنخدمك بعيوننا وننال أجر برِّك. نسأل الله أن يكون مرضك دلالة على حب الله لك، فإن عظم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله عز وجل إذا أحب قومًا ابتلاهم).



أهذا أفضل، أم أن يدغدغوا عواطف أبيهم بكلمات الأمل في الشفاء فترتفع معنويات المسكين وتنشط نفسه مؤقتًا ثم يتكشف له مع مرور الوقت أنه أمل وهمي زائف، فيضمحل التفاؤل ويعظم اليأس وتنتكس النفس؟

أيها أفضل؟ أن يركز الأبناء جهودهم على تكييف حياة أبيهم حسب المرض بجدولة أوقاتهم لتقاسم خدمته وتوفير الأدوات اللازمة لاحتياجاته الشخصية اليومية بما يناسب مرضه، وإدماجه في نشاطات تناسب مرضه وتملأ وقته.. أم أن يُبقوا كل شيء على ما هو عليه لأن أباهم «سيعود كما كان» ويذهبوا بأبيهم إلى الطبيب السادس والسابع ويعلقوا قلبه بقصص غير دقيقة سمعوها عن رجل شفي من المرض نفسه بعشبة لدى المعالج الفلاني.. وفي كل مرة يذهب معهم المسكين بأمل جديد ويرجع بانتكاسة.

سيقول قائل: (ولماذا لا يُجمع بينهما: الأمل والتعايش؟).. إن الواقع يشهد بأنه لا بد لأحد هذين الخيارين أن يكون الأصل والآخر الاستثناء، وأن النفس لا تجمع بين ذروة الأمل بزوال البلاء والتعايش معه بشكل كفؤ والصبر عليه. لا بد لأحدهما أن يحتل مساحة أكبر من التفكير والجهد.

ففي مثالنا، بقاء الأمل بالشفاء في ذروته يعني ضمنيًّا أنه (ليس هذا هو الوضع الذي نريده لأبينا)، وهذا الهاجس يزعزع الصبر ويُصَعِّب التعايش ويُفَوِّت فرص الاستثمار المجدي للوقت والجهد.

إننا ننصح من ابتلي بما هو طويل الأمد عادة أن يعتبر الوضع الجديد هو الأصل، والعودة إلى ما كان عليه قبل البلاء استثناءً. فهذا أدعى إلى أن يلتفت المبتَلى إلى مباهج جديدة في حياته تشغله عن الشعور



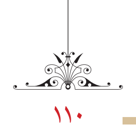
بنقص النعمة التي فقدها.. فينطلق من جديد في الحياة بما يتوفر لديه من مقومات. فإن قدَّر الله خلاف المألوف وكشف هذا البلاء، كان ذلك زيادةً وخيرًا على خير. أما إذا افترض المبتلى أن الأصل هو زوال هذا البلاء فإنه سيبقى يشعر بنقص في حياته وفجوة في قلبه، وسيشغله هذا الشعور عن ملاحظة المباهج الأخرى في حياته، وسيكون حديثه وتفكيره منصباً على البلاء فيدور في حلقة القلق المفرغة.. وقد يوصله ذلك إلى ازدراء نعمة الله عليه!

بل وإذا تعايشت فإنك سترى مباهج في نفس ما ابتُليت به، فأبناء هذا الرجل الذي ذكرناه في المثال سينقلب تركيزهم من الضيق برفض حقيقة المرض المزمن إلى الانشراح بنجاحهم فيما يحققونه من تخفيفٍ على والدهم وتذليل العقبات له واحتساب الأجر في ذلك كله.. وهو كذلك سيُسرُّ بما خفف الله به عليه وعوضه خيرًا من هؤلاء الأولاد الذين يرى انشراحهم وطيب نفوسهم.

سيقول قائل: لكني أعرف أمثلة من أناس خُرقت لهم العادة! فلانٌ قَنَّطَهُ الأطباء من الشفاء فشفي.. فقد يحصل معي كما حصل معه.

ها قد قلتها: «قد يحصل».. وقد لا يحصل! فوطِّن نفسك يا أخي ويا أختي على ما يغلب على الظن حصوله عادة، وابحث عن مباهج أخرى في حياتك، وأولها وأعظمها ما لن تُحرمه إذا طلبته بصدق: رحمة الله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].. فحينئذٍ سيمتلئ قلبك أُنسًا بالله تعالى ورضًا بقضائه وتوكلا عليه وحسن ظن به..

وأبقِ مع ذلك كله.. شمعة الأمل مضاءة..



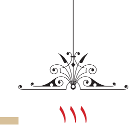
لماذا لا نستمتع بالنعم؟

تمر سنوات من حياتنا تجتمع لنا فيها أسباب كثيرة للسعادة، لكننا إن سألنا أنفسنا: هل نحن سعداء؟ فقد يأتي الجواب من أعماقنا: لستُ متأكدًا!

هناك طموحات وتطلعات تشغل بالك لم تتحقق بعد. تصبح هي محط تركيزك. أما ما اجتمع لديك من أسباب السعادة فقد فَتَرَ في حسّك وبهتت ألوانه وأصبح كالخلفية الجامدة غير المهمة في الصورة التي ينقصها محط تركيز العدسة، وهو هذه الطموحات التي لم تتحقق بعد.

كما يصدأ الحديد فإن أدوات تذوق النعم المركوزة في نفوسنا تصدأ.. لذا فإن الله تعالى يذكرنا في مواضع كثيرة بهذه النعم التي فترت في حسنا ولم تعد تعني لنا شيئًا:
﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: ٢٠]..
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، وآيات كثيرة عن السمع والبصر والمسكن والملبس والطعام والشراب والنار والمعادن والنوم والبعثِ بَعْدَهُ والأزواج والأولاد وغيرها.

آيات كثيرة، حتى لا نزدري نعمة الله وننساها. لكننا مع هذا التذكير

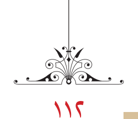


الإلهي قد لا نستمتع بهذه النعم. ليس الحديث هنا عن التفكير بمشاكل المسلمين والتألم لألمهم، فهذا مطلوب بالقدر الذي يدفع إلى العمل بإيجابية لمساعدتهم ونصرتهم. وليس الحديث عن تنغص العيش بظلم الظالمين الذين يفسدون علينا حياتنا ويسعون في الأرض فسادًا، فهذا التنغص لا بد منه، وينبغي أن يدفعنا إلى إصلاح أوضاعنا بعملٍ دؤوب، والقضاء الواحد تسخط على الظالم فيه وترضى عن الله وتستعين به على مدافعة هذا الظلم..

لكن الحديث هنا عن فقدان القدرة على تذوق النعم والشعور بمنة الله علينا فيها، وهذا داء يصيب النفس بغض النظر عن الاهتمام للمسلمين والتكدر بإفساد الظالمين.

هذا الداء جزء من ظواهر نفسية يعرفها المعالجون النفسيون بالـ (Cognitive Distortion)، أي: التشوُّه المعرفي، ويسمون هذه الظاهرة بالذات: (Mental Filter)، أي: الفلترة الذهنية، وهي عدم قدرة الفرد على ملاحظة النواحي الإيجابية في حياته بسبب انشغال ذهنه بمعكر بسيط نسبيًّا، كمن لا يرى إلا خللًا بسيطًا في ثوب جميل نافع. هذه إخواني ظاهرة غير صحية تحتاج علاجًا، لكنها في الواقع قد تكون موجودة لدى أكثرنا.

إذا لم يفلح أحدنا في تذوق نعم الله عليه وقدْرِها حق قدرها فقد يبتليه الله تعالى بفقدان أحد هذه النعم. والسعيد حينئذ من اتعظ ونَبَّهه فقدان هذه النعمة إلى أن هناك أشياء كثيرة في حياته لا زال يمتلكها تستوجب شكر الله وتستحق أن نكون بها سعداء. يأتي البلاء ليزيل الصدأ عن أدوات استشعار النعم المركوزة في فطرتك وينظفها ويعيد للحياة



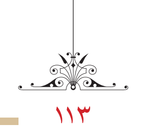
رونقها ويضفي عليها ألوانًا بهيجة من جديد، بعد أن كانت خلفية باهتة رتيبة لا لون فيها! بعد أن كانت الفلترة الذهنية تشغلك عنها وتغض من قيمتها وتعكر رونقها بالتطلع إلى ما لم يتحقق بعد من طموحات.. يأتي البلاء ليعلم الإنسان فن تذوُّق النعم!

كانت النعم لديك وفيرة، لكن قدرتك على تذوقها ضعيفة، فلم تحفل بها وتسعد كما يجب. قد تقل النعم بالبلاء الذي أفقدك مالًا أو جاهًا أو صحةً أو غيرها، لكن إن كنت من أهل الرضا وحسن الظن بالله وتأمُّلِ حكمته فإنك ستَتَنَبَّهُ بالبلاء إلى الكثير الذي بقي لديك وتستحي من الله أنك لم تَقْدُر نعمته عليك من قبل، فتكتسب فن تذوق النعم وتسعد بها وتطمئن.

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الذين يُرزقون العافية ويشكرون..

خلاصة هذه المحطة:

البلاء وإن كان يحرمك من بعض النعم،
لكنك تستطيع تحويله إلى سبب
لتذوق النعم الباقية التي بهتت في حسك،
وشكرِ الله عليها.



لا أستحق

مـرت أربعـة وأربعـون عامًـا مـن عمـري.. تقلبـت خلالهـا في نعـم الله عـز وجـل.. في حلمه وكرمه وستره ورحمتـه.. بمـا يعقـد اللسـان.. مـا مـن بـلاء عـانيتـه إلا ويـترفق بي الرحمـن فيـه، ولا يُحَـملني مـا لا طاقـة لي بـه، بـل يشـعرني بقربـه ومَعِيَّتـه ويجعـل لي في ثنايـا البـلاء خـيرا عظيمـا، في ديـني ونعيـم قلـبي ودنيـاي..

كانـت عيـني تـرِقُّ أحيانًـا، وأنـا في داخـل بـلائي، وأقـول: (مـاذا فعلـت حـتى يحصـل معـي هـذا؟!)، (لمـاذا أنـا يـا رب؟!)، (والله يـا رب لا أسـتحق)..
أعـني: مـاذا فعلـت حـتى تحصـل معـي هـذه اللطائـف مـن رحمـة ربي؟! لمـاذا أنـا ينعـم علـي ربي بهـذا الشـكل؟! لا أسـتحق هـذا الإنعـام، إي والله لا أسـتحق.

وكانـت تـراودني الهواجـس أن يكـون هـذا الإنعـام اسـتدراجًا، وأنـي في يـوم مـن الأيـام سـوف «أُعاقَـب» علـى تراكمـات تقصـيراتي وأُجـرد مـن هـذه النعـم لأعـود إلى حجـمي الحقيقـي كإنسـان لا يسـتحق كـرم ربـه، وأفقـد الإحسـاس بالحظـوة عنـده سـبحانه.
لكـنَّ يـوم العقوبـة القاصمـة هـذا لـم يـأتِ، بـل لطـف يتجـدد وكـرم يَغْمُـر وإنعـام يـزداد! وإذا جـاء بـلاء فَمَعَـه تصبـير ولطـف.

بـل وأدركـت أن خـوفي غـير المتـوازن مـن أن يكـون الإنعـام اسـتدراجًا كان سـوء أدب تجـاه ربي عـز وجـل، فالتعامـل مـع هدايـاه تعـالى كأنهـا «مسـمومة» يعكِّـر علـى مقـام الشـكر.. فأحمـده عـز وجـل علـى أنـه لـم يعاملـني بسـوء ظـني هـذا!



الخوف من الله مطلوب، لكن مع محبة لله تغمر قلب العبد.. مطلوب، لكن ليدفعك إلى إصلاح أوضاعك، لا ليعكر عليك نعمه سبحانه ويحرمك بلوغ مقام الشكر.

كثيرًا ما تساءلت:

(لا أستحق هذا الكرم كله من الله !!)، فكأني أسمع الجواب: (صحيح، أنت لا تستحقه.. لكنه تعالى أكرم من ألا يسعك كرمه)

- (أعمالي قليلة لا توازي نعمة الله علي!)
- (صحيح، لكنك تتعامل مع الودود الشكور سبحانه).

- (لكن هناك مَن أحسبهم خيرًا مني، فلماذا أنا؟)
- (ليس شأنك- "مش شغلك" -، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. يؤتيهم وإياك من فضله ولا يظلم أحدا)

- ("مش شغلي"، طيب.. لكن ما هو شغلي إذن؟ كيف أعبر لربي عن امتناني وأستديم نعمه؟)
- (أَفِض على الناس معاني المحبة وحسن الظن بالله التي تعيشها (وأحسن كما أحسن الله إليك)، وحدثهم عن رب ودود حليم بَرٍّ كريم ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى:١١]،وكن من الشاكرين).



مقدمة عن تعليق القلب بالآخرة

أيها الكرام..

لا زلنا نتأمل: كيف نحب الله تعالى بلا شروط؟ كيف نتفنن، فلا نمنع البلاء أن يؤثر على حبنا لله فحسب، بل نحوله إلى سبب لزيادة حبنا لله؟ كيف نبني حبنا لله على أسس سليمة لا تهتز ولا تتأثر بالمتغيرات؟

في المحطات السابقة ركزنا على أول أساسين من هذه الأسس، وهما:

١. تأمل أسماء الله وصفاته من خلال البلاء.
٢. التفكر فيما أنعم الله به علينا في ماضينا وحاضرنا.

الأساس الثالث الذي سنتأمله هو: تعليق القلب بالآخرة، وهو موضوع الصفحات القادمة.



ليست الدنيا دار جزاء

ستتعب إن قاومت هذه الحقيقة ومهما غالبتها ستبقى هي الحقيقة.. ليست الدنيا دار جزاء. فلو كانت دار جزاء لما قتل أنبياء كزكريا ويحيى عليهما السلام، ولما عذب عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى الموت كياسر وسمية، دون أن يروا قائمة تقوم للإسلام، ولما حصل لأهل الأخدود ما حصل.

لذا فعندما تتفكر في فوائد البلاء فلا تحصر نظرتك في الدنيوية منها.. فالنفس تبحث دومًا عن ثمرة عاجلة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وإن لم يأت الفرج المترقب حتى الممات فإن القصة لم تنته ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقد خطَّأ الله تعالى النظرة القاصرة التي تعتبر إغداق النعم في الدنيا إكرامًا من الله للإنسان والابتلاء إهانة: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].. فإنما حقيقة الإكرام والإهانة في الآخرة، أما الدنيا فدار بلاء.

في قصة يوسف عليه السلام، بعد أن بيّن الله تعالى أنه مكّن له في الأرض جزاء إحسانه قال تعالى ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٧].. خير من نقله من ظلمة السجن إلى كرسي الحكم.

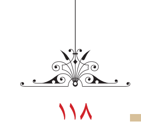
فحتى إن جوزيت خيرًا في الدنيا فعلق قلبك بأجر الآخرة الأعظم.

في بيعة العقبة الثانية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار التزامًا بالتضحية بكل شيء.. التزامًا يعرضهم لابتلاءات في الأنفس والأموال والأولاد.. فما المقابل الذي وعدهم به إن قبلوا؟: ((ولكم الجنة)).. فالجزاء أخروي.. صحيح أن نصوصًا أخرى وعدت بجزاء دنيوي كذلك (كالآية ٥٥ من سورة النور).. لكن هذا الجزاء على مستوى جماعة المؤمنين أما الأفراد فإن كثيرين منهم ماتوا ولم يستمتعوا به..

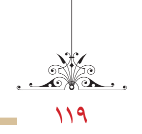
ويبقى نوع من النعيم يمنحه الله لكل مؤمن عاجلًا في هذه الدنيا زادًا يعينه على سلوك الطريق بمشقاته؛ وهو طمأنينة النفس والاستبشار: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]..

إذا لم يستقر هذا المفهوم في نفس المسلم: أنه (ليست الدنيا دار جزاء)، فإنه ستسوء منه الظنون عندما يقارن وضعه الدنيوي بأوضاع من لا يؤمنون بالله تعالى.. لذا فقد نهانا الله عن إجراء هذه المقارنات الدنيوية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه: ١٣١].. فارفع رأسك إلى السماء أيها المؤمن وتعرض لنفحات الجنة ولا تنزل ببصرك إلى ما فيه هؤلاء، فإنما هو فتنة لهم واستدراج.. قال عليه الصلاة والسلام: ((أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لهمْ طَيِّبَاتُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا)) (البخاري).

ومما ورد عن الحسن البصري رحمه الله: (من لم يتعزَّ بعزاء الآخرة



تقطعت نفسه على الدنيا حسرات).. نعم! سيتحسر على كل متاع دنيوي يفوته، خاصة إذا قارن نفسه بغيره.. أما المؤمن فيوقن بأن ما يفوته في الدنيا قد ادخر له أضعافه في الآخرة: ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧].. وبأن توفية الأجور لا تكون إلا يوم القيامة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]..



كن كالمحبوس!

المحبوس تسيطر على ذهنه مفردات: (الحبس) (الإفراج) (الحُكم) (القاضي) (التهمة) (الدفاع) (البينة) (البراءة) (التخفيف) (العقوبة) (المدة).

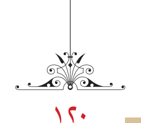
فتراه يفكر في هذه المفردات في قيامه وقعوده وصحوته ومنامه وأكله وشربه وصلاته ورياضته.

وتراه إن أمسك جريدة مثلًا أو سأل عن الأخبار اهتم بما يتعلق بالحبس والإفراج وبما يخدم قضيته وينجيه من العقوبة.

لا يتوقع أن يبحث عن موديلات السيارات وأسعار الفِلل السكنية.. فهذا كله لا يعنيه!

فلنستحضر أننا في هذه الدنيا محبوسون عن وطننا الأصلي، وهو الجنة، وأن معاصينا تُهم حقيقية عليها بيِّنات، فنستحق عليها العقوبة، وأن نقطة دفاعنا الرئيسية عن أنفسنا هي أننا موحدون، فإن تبين أن توحيدنا هذا مطعون فيه فلا تسأل عن مدة العقوبة!
ولْنتذكر أن البراءة من هذه التهم تكون بالتوبة النصوح.. وأنّ من بيده القضاء هو الحَكَم الحق: الله جل جلاله.

حينئذٍ، سنحرص على استرضاء الحكم الحق، والعمل بما ينقلنا من سجن الدنيا إلى سعة الآخرة. ولن ننشغل بسفاسف الدنيا وملهياتها، فهي لا تعنينا. وستكون قضية النجاة من عقوبة الله ونوال ثوابه ورضاه



مسيطرة على أذهاننا حــيةً في قـلـوبــنا لا نغفل عنه ساعةً أبدًا.

قال ابن القيم:

فـحَــــيَّ على جنـات عـدن فإنها　　مــنازلك الأولى وفيها المخـــيم

ولكننـا سَــبْيُ الـعــدو فــهل ترى　　نــعـــود إلى أوطـــاننا ونُــسلَّم



كله محسوب!

عندما يطول البلاء فإن النفس تتكدر على ما يتسبب فيه من «ضياع» الأوقات والأموال وإرهاق الأعصاب وتعكر المزاج وتأثر الصحة.. لكن المؤمن يتذكر أن لا شيء يضيع عند الله، بل كله محسوب.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: ١١٥]، وقال الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام: (ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ) (البخاري).

فلا تأس على شيء أيها المبتلى، إن صبرت فإن الصبر هو خير استثمار للوقت والمال والصحة.. ولا تفكر فيما تبذله من ذلك على أنه مهدر، بل هو رصيد لك هناك يوم لا درهم ولا دينار، إنما هي الحسنات والسيئات.



عندما خيّرتُ نفسي

أثناء ابتلاء مررتُ به، عز علي أن يطلع الله تعالى على قلوب أناس من أهل الباطل والشهوات فيرى بها استعدادًا للتضحية في سبيل الدنيا ونصرة الباطل، ويطلع على قلبي فيراني انشغلت بهمي وضننت بنفسي عن أن تؤذى في سبيل الله!

فكانت هذه القصيدة بعنوان (عندما خيرتُ نفسي):

تَئِنّ النفس من أُنسٍ تولى ... أسليها فتأبى أن تَسلَّى

تنوء بحملها وتضيق ذرعًا ... وتخشى ما به الأيام حُبلى

وتزفر من مصاب حل فينا ... ففرق بعد طيب العيش شملا

أشاغل حزنها بجميل ذكرى ... فترجع من شديد الشوق ذَبلى

وإن واعدتُها فرجًا سيأتي ... ترد بشارتي وتمَل مطلا

علام أراكِ يا ذي النفسُ كسلى ... مللتِ لدى ابتغاء المجد بذلا

ألا التمسي البراءة من نفاق ... بأفعال تصدق منك قولا

هي الأقدار تُبطل كل دعوى ... وترسل في حقول الزَّعم سيلا

فتُنبت من بذور الصدق دوحًا ... وقول الزور يبقى مضمحلا

فلم يحصد دنيء العزم فيها ... سوى يا ليت، لو أني، ولولا

ألا فلتنظري لعبيد دنيا ... غَشَوا في سعيهم صعبًا وسهلا

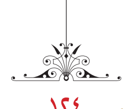
فمنهم مبتغٍ مدحًا وذكرًا ... يذوق لأجله طعنًا وقتلا

ويُعقِبُ كي يقال له شجاع ... صغارًا يُتَّمًا، والأم ثكلى



وآخــــرُ كل مــطــلــــبــه وصــالٌ ... بعبلـــــــةَ أو بـعَـــزَّة أو بـــليلى
فـيـهـلـك كي يـبـشَّ الـوجـه منها ... ويحســــــب أنــــها أوفَــتْـهُ كيلا!
وكم مـــن مـبـتـــغ مـــالًا ومُــلـكًا ... يــفـــارق فـــيــهـــما وطـــنًا وأهلا
ورأس الــقـــوم يـــؤْثِـــر موت عزٍّ ... لينـــجـــوَ من هـــوان العيش ذيلا

فـــإن كان الـــذي يـــســـعى لـدنيا ... يـــرى في ضَنِّه بالـــنـــفـــس بـخلا
ألستِ لدى اطِّلاب المـجـدِ أهـــلا ... بلى يا نــفــسُ، بل أحـــــرى وأولى
فـغـايـة مطلبي يا نــفـــسُ أعلى ... وربحيَ إن صـدقــتُ الـبـيـع أغلى
فإني بـــائـــع نفســـــي لـربي ... لأقــبــض منه مكرمة وفـضــلا
وأحـــظى في الجـــنان بطيب عيش ... فـجـــاري المصطفى، والله مـــولى
وأنشـــرَ في دياجي الـظـلـم نـــورًا ... وأنـشئَ في نــفـــوس الــنـــشء نبلا
وأدفـــع كـيـــد أفّـــاكٍ أثـــيـمٍ ... طغى في الأرض إفـــســـادًا وجـــهلا
فـلـــو ذاكرتِ يا ذي النفسُ أجـري ... وجـــائـــزتي لـــما استـثـقلتِ حملا
ولـــو عاينتِ حـــســـن جـــزاء ربي ... على فـــعـــل العـــباد لعدتِ خجلى
فـــهـــذي هـــمتي، والـــروح مني ... تـــرى في العـــجـــز خـــذلانًا وذلا
فـخـــوضي في مـــســـالـكـها وإلا ... ذريـــهـــــا تـــرتـــقي لله عجلى



في الصفحات التالية
متفرقات عن الصبر والتعلق بالله تعالى

إنها لحظة.. عندما يشتد اليأس فيعظم الرجاء

«ما لنا إلا الله»؛ عبارةٌ أصبحت في حسِّ كثير منا مرادفة لعبارة: «ما باليد حيلة»، عبارةُ: من لم يجد غُنيته عند البشر فاضطُّر أن يختار الله!
أصبحت عبارة إشهار إفلاس!
ذلك مع أنَّ الأصل أنَّ من لم يكن له إلا الله فما فقد شيئًا، ولا احتاج إلى شيء؛ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]..!
وأنَّ من كان معه كل شيء إلا الله فما معه إلا الباطل الذي لا يُسمِن ولا يغني من جوع..

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

إن ما يحصل معنا عند نزول البلاء هو أننا نلجأ إلى الله بدايةً، لكنَّنا ما نلبث أن نُدرك أنَّ هذا اللُّجوء حتى يكون صادقًا مُثمرًا لا بد له من تَبِعات؛ فمِن تَبِعَاته أن نبحث عن كل تفريط فرَّطناه في جَنْبِ الله فنُصلحه، وعن كل ثغر في حياتنا فنسُدَّه، وعن كل ذنبه فنتوب منه..

ومِن تبعات هذا اللُّجوء أن نُقبل على قلوبنا، ونُفتّش عن أمراضها فنعالجها، وسنجد حينئذٍ أننا كنا قد أهملنا قلوبنا لسنوات فعادت خَرَابًا بَلْقَعًا خاويةً غافلة، قد ضعُفت فيها معاني محبَّة اللهِ وصِدق التوكل عليه والخشوع بين يديه والذُّل له والتَّعلُّق به والشَّوق إلى لقائه!
فنجد أنه لا بد من إزالة أشواكها وتقليب أرضها وبَذْرِ آيات الله فيها، وسِقايتِها بماء القيام والصيام والدعاء.

نعم؛ سنكتشف أن اللجوء إلى الله والفرار إليه والاعتصام بحبله هذا كله تبِعاتُه وله ثمنه.

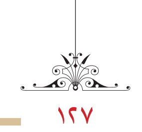
لكننا نريد التخلص من البلاء بسرعة! وعملية ترك الذنوب وسد الثغور وقلع الأشواك وبذر البذور وسقيها وانتظار إنباتها عملية تحتاج إلى وقت، والوقت يمر، وليس في صالحنا، فما الحل؟

الحل الذي نختاره عادةً هو السَّعي في أسباب أرضيَّةٍ تبدو أسرع نتيجةً وأخفَّ حِملًا من عملية اللُّجوء الصَّادق إلى الله؛ فنَنْوي أن نسير في هذه الأسباب جنبًا إلى جنب مع عمليَّة اللُّجوء إلى الله وتبِعاتها، وأيَّتهما سَبَقت في رفع البلاء فبِها ونِعمت، وأما تَبِعاتُ اللُّجوء إلى الله؛ ففي العُمر فُسْحةٌ لاسْتِكْمَالِها!

وهنا يبدأ الانحراف؛ عندما نَكْسلُ عن تحمُّل تَبِعات اللُّجوء إلى الله فنبحث عن بديل! نخدع أنفسنا بأن هذا البديل سبب، وأنَّ الله أمرنا بالأخذ بالأسباب. نعم.. الأخذ بالأسباب محمودٌ عندما يصدُقُ مِنَّا اللُّجوء إلى الله، ونصبِر ونُصابر لإصلاح أنفسنا، فلا يكون في القلب تعلُّقٌ إلا به تعالى..

لكن عندما يكون سعينا في الأسباب نتيجةً لاستِطالتنا طريقَ اللُّجوء إلى الله، ولِكَسَلِنا عن تحمُّل تبعاتها؛ فإنَّ هذه الأسباب تُصبح في حِسِّنا بديلًا عن الله، فتُزاحم هذه الأسبابُ اللُّجوءَ إلى الله في قلوبنا، وتحتلُّ من مساحاته، وتصرف عنه وقتنا وجهدنا وعاطفتنا وتفكيرنا، فنُصبح نفكِّر في هذه الأسباب الماديَّة أثناء صلاتنا وقيامنا وتلاوتنا ودعائنا؛ فالظَّواهر مع الله والبواطن مع الأسباب وطرق تحصيلها واستكمالها وخوف فواتها وموانع تأثيرها وبدائلها في حال فشلها، وآخر أخبارها..!

وكلما اكتشفنا أن هذه الأسباب خرَّبت عملية اللجوء إلى الله خدَّرنا أنفسنا بالمعاذير؛ فنقول لأنفسنا: «إن هذه الأسباب مَوْقُوتةٌ بمواقيتَ



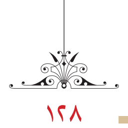
تَفُوتُ بِفَوَاتِها، أمَّا باب التوبة فمفتوحٌ لا يُسدّ.. إن كان يُقلقني أني لا أبكي من خشية الله ولا أخشع في صلاتي فهذا ليس بالجديد، عِشت على ذلك سنوات طويلة، ولا شيء يأتي دَفْعةً واحدة؛ لديَّ تحسُّنٌ وإن كان بطيئًا، والله رحيم يرى ما بي وهَوْلَ الأمر الذي يشغلني فسيعذرني، ثم إنني لن أستطيع الإقبال على قلبي لأصلحه وأنا مشغول البال بالأسباب وتقصيري فيها، فَلْأُركّز الآن على الأسباب لأُريح بالي منها، حتى أتفرَّغ لإصلاح قلبي» !

وكأننا بهذا نتخذ الأسباب «ضمانات» مع الله؛ بحيث إذا قصَّرنا في حق الله ولم نضمن مِن ثَمَّ الفرجَ من جهته أسعفتنا الأسباب..!

أتُريد أن تعرِف إن كان هذا الدَّاء دبَّ إلى قلبك؟ حينما تضع رأسك للنوم.. في هذه اللحظة التي تختزِل تقلُّبات كيانك خلال يوم كامل، وأنت تدعو بالدعاء المأثور، ركّز جيدًا، هل تعني ما تقول؟ هل أنت مستعِدٌّ لتحمُّلِ تَبِعات هذه الكلمات: «اللهم أَسْلَمتُ نفسي إليك، وفوَّضت أمري إليك..»؟

إذا اضطرب قلبك وأنت تقولها وأنت متأمِّلٌ معناها فاعلم أن القلب يضطرب ويخاف عند الكذب! لأنك لا تريد حقيقةً أن تُسلِم نفسك بكُلّيّتها إلى الله، بل تُريد ضمانات الأسباب مع الله!

لن تشعر بالطُّمأنينة إذا أَسْلَمتَ نفسك إلى الله وهي مَشُوبَةٌ لم تنوِ بعدُ أن تُقبِل على الله بصدقٍ وتؤديَ حقه.. هذه هي الخطورة، وهنا مَكْمَن الزَّلل؛ عندما يكون التَّعلُّق بالأسباب الأرضية معوِّضًا عن استكمال اللُّجوء إلى الله الذي اسْتَثْقَلنا تَبِعاته، فنظنُّ أنَّ هذه الأسباب أسرع مفعولًا، أو أضمن نتيجة، أو أَدْفَعُ لعِتابِ أنفسنا مِن اللَّجوء الصَّادق إلى الله تعالى..



ستبقى تخرج من القلب أسبابٌ لتَحُلَّ أسباب، وستبقى تنتقِل مِن سرابٍ إلى سراب، تطلبُ الماء فلا ماء، وتنقلِبُ جبال الأسباب إلى هباء!

ولن تدعُوَ اللهَ بصدقٍ خلال هذه المَعْمَعَة؛ فاللُّجوء إلى الله مقامٌ عزيز، يأبى أنْ يُزاحِمَ أو يُزاحَم، فيبقى خارِجَ القلب ينظر إلى هذه الأسباب التي خَلَت عن الله فاسْتَحَالت باطلًا، ويأبى اللُّجوءُ إلى اللهِ أن يجتمع مع الباطل في قلب واحد..

إنها اللحظة التي تَلْقَنُ فيها الدَّرسَ وتستوعِبُه، وتدرك أنك في سَعْيِك السَّابق كله لم تكن على شيء.. وتيأسُ من الأسباب الأرضيَّة كلها.. وتيأسُ من نفسك ومن قدراتها وذكائِها وتخطيطها.. وتذوقُ مرارة ضعفِ قُوَّتك وقِلَّة حِيلَتِكَ وهَوَانِك على الناس.. وتيأسُ من أهلك وعشيرتك وأصدقائِك ومُحبِّيك، وتعلم أنهم -وإنْ أرادوا لكَ الخير- لا يملكون بِذَوَاتهم لك نفعًا ولا ضَرًا.. وتيأسُ من كل الِحبال الأرضيَّة المدودةِ إليك وتُوقِنُ أنْ لا عاصِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِم.. بل وتيأسُ من أعمالك الصالحة كلها، وتستحي أن تتوسَّل إلى الله بها لأنك تشُكُّ في قَبُولها وقد صَدَرتْ مِن قلبك الغافل..!

إنها لحظة اليأس والقُنوط والقَحْطِ والإِمْحَال مِن كل شيء..
لحظة خلوِّ القلب من كل شيء..
لحظة انهيار الأمل في كل شيء.. كل شيء!
هي اللحظة المناسبة لشعور اللجوء إلى الله أن يَنْقَذِف في القلب!

لقد كان هذا الشعور بالانتظار.. يرى أسبابًا تَحِلُّ وتَرْتَحِل، وتنسِجُ في خرابِ القلبِ خيوطَ العنكبوت، فلمَّا خَلَا القلبُ منها جميعًا واسْتَنْفَدَها

جميعـا، انقـذف فيـه اللجـوء إلى الله، فَمَـلَأَه وعَمَـر أرجـاءه وأنبـت خضـراءه وجعلـه ينبـض بقـوة مـن جديـد، فمـا يلبـث الـرِّيُّ أن يَفِيـضَ علـى سـاقِيَةِ العينـين لتنهمِـر دُموعُهمـا مـن جديـد بعـد طـول جفـاف، وتكتمِـلُ الحلقـةُ بلسـانٍ يَلْهَـجُ بأدعيـةٍ تتدفَّـقُ عليـه وتتهـدَّجُ مـع دقَّـات القلـب ودَفَقَـات الدَّمـع..

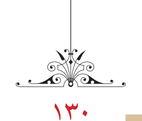
إنها لحظة.. ستعرفها أنها هي عندما تعيشُها..

كلحظـة الثَّلاثـة الذيـن خُلِّفـوا حـتى إذا ضاقـت عليهـم الأرض بمـا رحُبَـتْ، وضاقـت عليهـم أنفسـهم، ويئِسـوا مـن كل شيء، وأيقنـوا أنْ لا ملجـأ مـن الله إلا إليـه، قَـذَف الله في قلوبهـم وألهمهـم: أن توبـوا فـإني أريـد أن أتـوب عليكـم..

إنهـا لحظـة.. سـتعرفها أنهـا هـي؛ لحظـةٌ يقـرعُ كِيانـك فيهـا قـارِعٌ يقـول: "الآن! يـا قلـبُ نبضـك، يـا عـينُ دمعـكِ، يـا لسـانُ دعـاءَك.. الآن: اللهُ يريـدُ أن يسـتجيبَ دعـاءك"..

إنْ هي إلا لحظة..!
سـتقول: مـا دامـت لحظـة أيُعقـل أنَّ قلـبي لـم يتعـرَّض طَـوَال مـا مـضى مِـن بـلائي لنَفَحَـات تلـك اللحظـة؟

نعـم؛ إنـه الشـيطان عندمـا لمـس منـك تكاسـلًا عـن تبِعـات اللُّجـوء إلى الله هَجَـم عليـكَ لِيَجْتَالَـكَ عـن طريـق الله قائـلًا: "أيـن تذهـب؟ طريقـك الـذي تهُـمُّ بسـلوكه طويـل؛ هاهنـا خِصْـبٌ قريـبٌ فارْتَـع".. فأسْـلَمْتَهُ لِجـام قلبـكَ فنقَّلـه بـين مَرَاتِـع الجَـدْب، ولـو عصيتـه في أول الطريـق لوصلـت!



إنـه الشـيطان؛ رآك تقـرع بـاب الفـرج الحقيقـي، فلمـا لمـس منـك مَلـلًا وفُتـورًا قـال لـك: "هاهنـا مَخْـرجٌ سـهلٌ فاتَّبعـني" .. فقـادَك في دِهْلـيزِ الأسـباب فأضعـت فيـه وقتـك وجهـدك، وكلَّمـا هَمَمـتَ بالرجـوع إلى بـاب الفرج الحقيقي قـال: "رويـدًا.. أُبصر آخر هـذا النفق نـورًا" .. ولا نـورا؛ إنما يصـدك عـن السـبيل ويزعـم أنـه هاديـك، ولـو عصيتَـهُ أوّل الأمـرِ ولَزِمْـتَ قـرع البـاب لفُتـح لـك..

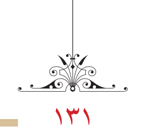
صحيـحٌ أن اللُّجـوء إلى اللهِ لـهُ تَبِعـات، وصحيـح أن قَلْـعَ الأشـواكِ مـن القلـب وبَـذْرَ البُـذور فيـه يحتـاج وقتًـا وجهـدًا، لكنَّـه أقـلُّ بكثـيرٍ مـن الوقـت والجهـد اللذَيْـن سـتُنفِقُهما هبـاءً في دِهليـز الأسـباب الخاليـة عـن الله.. ومـع الله سـتجِدُ الأُنـس والطمأنينـة، ومـع هـذه الأسـباب سـتجد الخـوف والخـذلان، ثـم في الأولى تصـل وفي الثانيـة لا تـزداد إلا تِيهًـا..!

فلمـاذا إذن نبقـى نُعلِّـق قلوبنـا بالأسـباب الأرضيـة وبالمخلوقِـين ليُنَجُّونـا مـن مَضَائِقنـا؟ ونـدفـع تكاليـف ذلـك مـن وقـتٍ وجُهـدٍ وتمـزُّق نفس وتشـتُّتِ فِكْـرٍ وغُصَّـةٍ وهـمٍّ وقهـر وخيبـة أمـل في المخلوقـين؟!

لماذا لا نتَّعِظ بغيرنا؟

لا بـأس، إنـه الطَّبـع البشـري؛ نُصِـرُّ علـى التجربـة بأنفسـنا، حـتى إذا عَرَكَتْنـا وذُقنـا مَرارتهـا أصبحنـا أكـثر حزمًـا وأقـوى عزمًـا في صـدِّ الشـيطان إنْ حـاول صـرفنا عــن بـاب الفـرج الحقيقـي وقلنـا لـه: "غُـرَّ غـيري.. غُـرَّ غـيري..".

لكـنَّ المصيبـة إنْ لـم يتَّعِـظ أحدنـا بتجـارب نفسـه وأصـرَّ علـى خـوض



الدِّهليز -دهليز الأسباب الأرضيَّة الـمُنقطِعة عن الله، دهليز التَّعلق بالمخلوقين- في كل بلاء جديد، ولا ينبغي للمؤمن أن يُلدغ من جُحرٍ مرتين..!

فَسَلْ اللهَ أن يرزقك لحظة اليأس والرجاء هذه؛ اليأس من المخلوقين، والرجاء في الخالق سبحانه..

إنها لحظة.. لكن ما أعزَّها من لحظة وأندَرها!
إنها لحظة.. إن عاشها القلب انتفض بجبال الهموم المتراكمة عليه فينسِفُها ربي نسفًا..
إنها لحظة.. لكنها تنقل القلب من وادي الضياع السَّحيق ليتعلَّق بالعرش..
إنها لحظة.. تنقلك من حضيض الفشل إلى قمة الأمل، ومن وحشة اليأس إلى بهجة الأُنس..
إنها لحظة.. تنشِلك من المخاوف التي تنهشك من كل جانب إلى كنف الله حيث الأمان..
إنها لحظة.. ظننتَ قبلها أنك فقدت كل شيء، لتكتشف بعدها أنك وجدت كل شيء..
إنها لحظة.. وكأنَّها صيحة في مقبرة القلب أَحْيَت مَوَاتَه..

إنها لحظة التعلُّق بالله، بالله لا غير، وهي هي والله لحظة الفرج، فرجٍ عن قلبك بإحيائه بعد مَوَات، وفرجٍ من كربك بالطريقة التي يشاؤها الله ويُرضيك عنها..

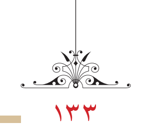
إنها لحظة كلحظات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. صحيحٌ أنَّ حياة الأنبياء كلَّها تعلُّقٌ بالله، لكنَّ هذا التعلق كان يتمحَّصُ ويصفو ويتجرَّد



ويبلغ الذّروة في لحظات فيأتي الفرج..
كلحظة نوح إذ دعا ربه ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر].. فأنجاه الله ومن معه في الفُلك..
كلحظة إبراهيم إذ قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»؛ فجعلَ اللهُ النار بردًا وسلامًا عليه..
كلحظة يونس إذ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، فأنجاهُ اللهُ مِن الغمّ وأنجاه من بطن الحوت..
كلحظة موسى إذ قال: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء]، فنجَّاه الله وقومه من بحرٍ أمامه وعدوٍّ وراءه..
كلحظة أيوب إذ نادى رب: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء]، فكشفَ اللهُ ما به مِن ضُرٍّ وآتاه أهله ومثلهم معهم..
كلحظة يوسف إذ خلا قلبه من التعلّق بالملِك وبالخروج المَشُوبِ من السجن فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ [يوسف: ٥٠]، فأنجاه الله من السجن وآتاه مُلكًا..
كلحظة يعقوب إذ قال لبنيه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، فردَّ الله عليه أبناءه وبصره..
كلحظة محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فأنجاه الله من سيوف المشركين التي كانت فوق رأسه في صحراء لا قرابة فيها فيدفعون عن رسول الله ولا أتباع..

إنها لحظة اليأس من المخلوقين، فلا يبقى إلا الرجاء في الخالق، فيأتي الفرج سريعًا.. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾ [يوسف]..

إنَّ فرج الله قريب.. قريب جدًّا؛ لأنه لا يَحُولُ بيننا وبينه إلا هذه



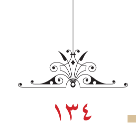
اللحظة، إنما نحن الذين نبتعد عنه بالدخول في دهاليز الأسباب الخالية عن الله والتَّنقُّل بين مَرَاتِعِها، عندما نَسْتَثْقِلُ -بضعف بصائرنا وقلة صبرنا- تبعات اللجوء إلى الله!

لذا فالصبر المطلوب في البلاء ليس صبر التَّجلُّد أمام الهمّ فقط؛ بل الأهمُّ منه الصبر في أداء تِبعات اللجوء إلى الله سبحانه..

إنها لحظة اليقين الخالص بصدق الله، والثقة المطلقة بقدرته على تنجيتنا مهما أمْحَلَتِ الأسباب، وبأنَّ من لزِم قرع الباب يُوشِك أن يُفتح له.. لحظة اليقين بأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك..
لحظة تنشِلك من الدِّهليز لتضعك أمام باب الفرج من جديد..

لذا فإذا عشنا هذه اللحظة وأيقنا فعلنا بأنه ما لنا إلا الله، فيالَسعادتنا وهنائنا وراحة بالنا! ولن تكون عبارةَ إشهارِ إفلاس؛ بل إعلان غنًى واكتفاء.. ولن نقولها بضعف وحزن وخوف، بل سنقولها بثباتٍ واعتزازٍ واستبشار؛ لأن من لم يكن له إلا الله فالله حسبه ونِعم الوكيل، ونِعم المولى ونِعم النصير، وحينئذ عندما نضع رأسنا لننام ونقول: «اللهم أسلمتُ نفسي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك..»، سيرجُف قلبنا؛ لكنه هذه المرة رَجَفان المحبة لله والأُنس به بعد طول غفلة عنه..

لقد عِشتُ شخصيًا هذه اللحظة عندما غُيِّبْتُ عن أهلي ظلماً.. كان يُؤرِّقني أثناء تغييبي هذا خوفي على والِديَّ أن يصيب أحدَهما شرٌّ في غيابي، والمشكلة أنني كنت قد قصَّرت معهما مِن قبل في تكريس الوقت والجهد الكافِيَيْن في إسعادهما. كثيرًا ما كان انشغالي بالدعوة وأمور



نافعة، لكنَّ عدم الالتزام بالأولويات هو في حدّ ذاته خطأ ينبغي للإنسان أن يستغفر منه؛ فالله عز وجل فرض علينا برَّ الوالدين والتفنُّن في ذلك؛ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فلا عُذر لك في أن تنشغل عن بر والديك بأمور أخرى هي محبوبة لله عز وجل، فالشيطان قد يَقْنَعُ منك بأن يُلهيك بالـمَفضول عن الفاضل. لذلك في تغييبي كانت تراودني المخاوف ألَّا أُدرك أحد والديَّ أو كليهما.

تعلَّق قلبي بالأسباب الأرضية.. كان يبدو هناك حبالٌ كثيرة ممدودة ستُنجيني من بلائي، لكنَّ هذه الحبال قُطِّعت فجأة، والأسباب انهارت فجأة، فوجدتُ نفسي في لحظة من اليأس من كل شيء، كل شيء أرضيّ، كل شيء ماديّ.. وفي هذه اللحظة تعلَّق قلبي بالله عز وجل تعلُّقًا صحيحًا..

كتبت في أثناء تغييبي قصيدة تعبّر عن هذه اللحظة..

يُكدِّر صَفْوَ نَفسِي طولُ أَسْرِي ... ويَخنقني الأَسَى ويضيقُ صدري

أحِنُّ إلى عِيَالي أنْ أَرَاهُم ... أُلاعِبَهُمْ، أضُمَّهُمُ لِحِجري

ولي أَبَوانِ قد بلغا مَشِيبًا ... مِنَ الأمراضِ قد بُليا بضُرِّ

فهذا والدي مُضنًى قعيدٌ ... تَضَاءلَ جِسمه بخريفِ عُمْرِ

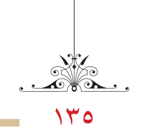
ولي أمٌّ تُكابِدُ ما أُعاني ... تكادُ تذوبُ مِنْ كَمَدٍ وقهرِ

وأمُّ عِيالِيَ الْتَاعَتْ لفَقْدي ... كَسِيرٌ بَالُها والدَّمع يجري

يُسائلها صِغاري عن غيابي ... فيغلي قلبُها في مِثلِ جَمْرِ

وقد أصبحتُ عِند الناس رهنًا ... قد اجتهدوا ليرمُوني بشرِّ

كأني مِتُّ قبل بلوغ حتفي ... فَوَارَوْنِي -وبي رمقٌ- بقبري



وإنّي مـا سـلـكـتُ سـبـيـل ربي ... وأحـسِـبُهُ خَـلَا مِـن كُلِّ مـرِّ
ولم أحـسِـبهُ مـحـفـوفًا بـوردٍ ... ومـفـروشًا بـيـاقـوتٍ ودرِّ
ولستُ بجـاهـلٍ سُـنَنَ الـبَـلَايا ... ولا مـتـذمِّـرٍ أن جـاء دوري
ولـسـتُ أخـافُ مِـن فُـقدان جـاهٍ ... ولـسـتُ أخـافُ أن أُبـلى بـفـقرِ
ولـكـنـي أخـاف مِن المـنايا ... على أبـويَّ إن فَـجَـأتْ بِـعُـقرِ
وقـد قـصَّـرتُ عـنـدهُـما بحـقٍّ ... ولستُ مُـعـاذِرًا أبـدًا بعُـذْرِ
فـإنْ مَـاتَا ومـا اكـتُـنِـفا بِـبِرِّي ... فـيـالَـنَـدَمـاتي وَضَـياعِ أمـري!
سـيـبقى ذِكـرُهُم جُـرحًا عمـيقًا ... وكَـسْـرًا في الفـؤاد بغـيرجـبرِ
وكـنـتُ أبًا لأولادي مُـحـبًّا ... ولكني شُـغِـلتُ بـنـيـل فخـرِ
فلم أُغـدِق عـلـيهم مِن حـناني ... بـل اسـتـقـبلتُـهم بكثيرزجـرِ

أُقـلِّـب نـاظـري وأُجِـيلُ فِكري ... لعلّيَ أسـتـعـينُ لرفع جـوْرِ
لـجـأتُ إلى العـباد لينـقـذوني ... فـما أَلْـفَـيْتُ مِن سـندٍ لظهري
سـوى إخـوانَ قد جَهِـدُوا لجَهدي ... ولكن مـا اسـتـطاعوا فكَّ أسري
حَسِـيرًا خَـاسِـئًا قد عَـادَ بصري ... فلم يـرجـع بـما عـني يُـسرِّي

فـلـمَّا أَوْصَـدُوا الأبـواب دوني ... وكاد الـيأسُ يَسْـحقُ كُلَّ بِـشْـرِ
أَنَخْتُ بِبـابكُمْ يـا ربِّ رَحْـلي ... وأرجـو عندكم جـبرًا لـكـسري
وقد فـتَّشتُ في عـملي لـعلّي ... ذَخَـرْتُ لمـثل ضِـيـقي أيَّ ذُخْـرِ
بِـفـعـلٍ خَـالِصٍ ترضـاهُ ربي ... فـيشـفعَ عندكم في كَشْفِ ضُـرِّ
فلم أُبـصـر سِوى صحَـراء جَدْبٍ ... ولم أُقـبل عـليك سـوى بوِزْرِي!



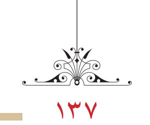
وإني نـــادمٌ يـــا رب حـــقًا وأنـوي تـوبةً مـا عِـشتُ عُمري
وإني قد وعـدتُـك قَـبْـلَ هـذا فـجُـدْتَ تكرُّمًا ونَـشَـرْتُ غَدْرِي
ولـكـنـي أحـبـك يـا إلـهي وصُـغتُ بِوُدِّكُم نَـثْرِي وشِـعْـري
ولم أمـدُدْ إلـيـك يـدًا إلـهي فـعَـادَتْ مِن عـطايـاكُم بِصِفْرِ
ظَـنَـنْـتُ بعـفوكُم يـا ربِّ خيرًا فـإني لـم ألُـذْ إلا بـبَرِّ
ألا فارْحَـم ضـعـيفكَ يا إلـهي وأسـعِـدْهُ بـيُـسـرٍ بعد عُـسْرِ
وأرجِـعـني إلى أبـويْ مَـشِـيبٍ لـتنـظُرَ كيف إحـسـاني وبِـرّي
أجِـبني إنْ عَلِمْتَ بـصـدقِ قـولي فـلا يَخْـفَاكَ إعـلاني وسِـرّي
على الـرَّحـمنِ أُقسم كل جَـهْـدِي وأعـلـمُ أنـه سَـيَـفِي بِـبـرِّ
أزِل عـنـي وعـن أخـويَّ غـمًّا وبـدِّد لـيـلنا بطلـوعِ فـجرِ

لقد عِشتُ شخصيًا هذه اللحظة، ولكن ما أحوج العالم الإسلامي أن يعيشها!

ما أحوج العالم الإسلامي اليوم أن يقطع الأمل في كل شيء؛ أن يقطع الأمل في المخلوقين..

ما أحوج هذه الشعوب حين ترفع الشِّعارات: «ما لنا إلا الله» أن تُدرك معنى هذا الشعار؛ فوالله لئن آمنت به إيمانًا حقًا وقامت بتبعاته وعلّقت قلبها بالله فحسب، والله ليجعلنَّ الله لها فرجًا ومخرجًا..

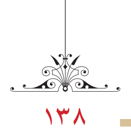
يا مسلمون.. يا مسلمون.. توكلوا على ربكم، علّقوا قلوبكم برحمته، لا تعلّقوا قلوبكم بالمخلوقِين، لا تلجأوا إلى غير ربكم سبحانه وتعالى، اصدُقوا في اللجوء إلى الله، اطرحوا أنفسكم على عتباته سبحانه..



﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]..

والله تعالى أعلم وأحكم..

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..



علاقة خاصة مع الله تعالى

عندما نمر بظرف صعب، أو نتمنى أمرًا مستبعد الحصول، فإن هناك تفكيرا يجعل أملنا في تحقيق ما ندعو به ضعيفا، فندعو الله بفتور. هذا التفكير هو: (كثيرون غيري مروا بظرف مشابه، وأراهم خيرا مني، وقد دعوا الله فلم يَستجب لهم. فلا يتوقع أن يستجيب لي من باب أولى).

إخواني، دعوني أشارككم الجواب الذي أجبت به نفسي عن هذا السؤال، ووجدت له أثرًا عظيمًا في علاقتي بالله تعالى، وأحسب أنه من الأسباب العظيمة لاستجابة الدعاء.

الجواب: (انظر إلى علاقتك بالله تعالى كعلاقة خاصة لا تتأثر بما يحصل مع الآخرين). قد يكون كثيرون غيرك وقعوا في مثل بلائك بل أشد، ولم يُرفع عنهم، مع أنهم دعوا الله كثيرًا، ومع أنهم أحسن منك عبادة وأكثر تقوى. لا علاقة لك أنت. ادعُ بيقينٍ وطمعٍ في كرم الله ولا تقارن بغيرك.

ما الأدلة على هذا؟

١. المقارنة بالآخرين (غيري أفضل ولم يُرفع بلاؤه فمن باب أولى أنا) هي نوع من الحساب. والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]..فتفريج الكربات وتحقيق الأمنيات وكل أشكال الأرزاق من الخلاق لا تخضع لحساب.

قال ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير): (والحساب في قوله: (بغير



حساب) بمعنى الحصر لأنّ الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى إنّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله).

- تأمل قول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عمران: ٧٣،٧٤]..

٢. ويشهد لمعنى العلاقة الخاصة حديث رواه البخاري قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: (... ومَثَلُكم ومَثَلُ اليهودِ والنصارى، كمَثَلِ رجلٍ استَعمَل عُمَّالًا، فقال: مَن يَعمَلُ لي إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ، فعمِلَتِ اليهودُ، فقال: مَن يَعمَلُ لي من نصفِ النهارِ إلى العصرِ، فعمِلَتِ النصارى، ثم أنتم (المسلمون) تَعمَلونَ مِنَ العصرِ إلى المَغرِبِ بقيراطَينِ قيراطَينِ. قالوا (اليهود والنصارى -من مات على التوحيد منهم قبل بعثة النبي): (نحن أكثَرُ عملًا وأقلُّ عَطاءً؟!)، قال: (هل ظلمتُكم من حقِّكم؟) قالوا: (لا)، قال: (فذاكَ فضلي أوتيه مَن شئتُ).

محل الشاهد أن الله لا يظلم أحدًا، بل يعطي كل محسن أكثر مما يستحق، لكنه قد يختار أناسًا لفضلٍ زائدٍ. لاحظ أن اسمه (فضلٌ) وليس حقًّا واجبًا عليه سبحانه. فللمسلم أن يرجو أن يكون من الذين اختصهم الله تعالى بمزيد فضل.

أيها الكرام:

- من مقاصد الدين تطميع العبد في رحمة الله وتكوين رجاء عظيم في عطائه. والمقارنة المذكورة مع الاستجابة للآخرين تنافي هذا المقصد الجليل.

- وإذا كانت المقارنة المذكورة صحيحة، فعلى ماذا الدعاء إذًا؟! سأنظر إلى



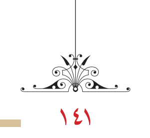
غيري فأقارن فيكون الرد جاهزًا: (لم يُحقق لهم ما دعوا له فلن يُحقق لي) فتتعطل عبودية الدعاء في كثير من الحالات.

- انظر إلى بلاء الآخرين لتصبر كما يصبرون طالما أنك في بلائك. لكن لا يصح أن ترهن التفريج عنك بالتفريج عنهم.

- لكن أتعلمون ماذا يحصل؟ أحيانًا ننتظر الفرج على غيرنا لأننا نحس أن في ذلك «إثباتًا لرحمة الله» واستجابته للدعاء! مع أن أدلة الرحمة والاستجابة متتابعة لا يحدها حد لولا النسيان وقلة التأمل.

- إن الذين تراهم خيرًا منك قد لا يحقق الله لهم ما طلبوه من رفع البلاء مثلا لأنهم خير منك! فيدخر لهم دعاءهم محو سيئات ورفع درجات، لأنه سبحانه يعلم أن إيمانهم يتحمل، ويرزقهم سبحانه مع ذلك الرضا بقضائه ونعيما لقلوبهم، ويكون بذلك قد استجاب دعاءهم بما هو أنفع لهم مما طلبوه في الحقيقة، بينما قد يعلم سبحانه أن فيك ضعفًا (عودك طري) فيرحم ضعفك، ويجعل استجابة دعائك برفع البلاء.

لأجل ما سبق جميعًا، ادع الله بيقين، واجعل علاقتك به سبحانه خاصة، واطمع في أن تكون من أهل الحظوة عنده، كأنك تقول: (يا رب، أنا لا شأن لي بفلان وفلان ممن لم يُرفع بلاؤهم، أنت أرحم بهم وأعلم بما يصلحهم. ما أعلمه أنا هو أنني عبد لربٍّ كريم لا حد لعطائه، ولا رب لي سواه فأرجوه، يرزق من يشاء بغير حساب، فاستجب يا كريم).



سوف تراهما بمنظر أكثر إبهاجًا بإذن الله!

كتبت هذه الخاطرة عام ١٤٣١ هجري، ٢٠١٠ م:

بدأت محنتي الحالية في البعد عن عائلتي عندما كان عمر التوأَمَتَين من أطفالي (لين ولجين) خمسة أشهر.. ولا زالت لإحداهما صورة عالقة بذهني؛ كنت أضعها على ظهرها على الأرض فتنقلب على بطنها ثم ترفع صدرها بيدها.. فإذا التقت عيناي بعينيها ابتسمت ابتسامة الانتصار ورأسها يهتز لثقله على جسمها الصغير!

بقدر ما كان هذا المنظر مبهجًا في حينه فقد أصبح مؤلمًا لي الآن وأنا في الغربة بعيد عن أولادي، أتمنى أن أرى الصغيرتين وهما تكبران يومًا بعد يوم، أن أرى تطور حركاتهما مرحلة مرحلة؛ تتقلبان ثم تحبوان ثم تمشيان وهما تمسكان بأطراف الأثاث ثم تمشيان مسافات قصيرة بخطوات سريعة مُنْتَشِيَتَيْن بتشجيع الحاضرين.. هذه المرحلة تمر الآن وأنا بعيد عنهما، فاقداً بذلك متعة لن تعود!

كان لهذا التفكير وخزٌ مؤلمٌ في حِسِّي.. إلى أن قلت لنفسي: (لا تحزن، سوف تراهما بمبلغ أكثر إبهاجًا بإذن الله)! ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ [القلم: ٣٢]..

قلت لنفسي: ماذا تستفيد إن عايشتَ تطورات حركات ابنتيك هاتين حتى كبرتا وقاربتا سن التكليف، ثم إذا بهما تفاجئانك بالنفور من ارتداء الحجاب مثلاً؟! أي ذكرى جميلة تبقى حينئذ إن كانت ابنتاك من صلبك ترفضان شعائر دين تضحي أنت من أجله؟!

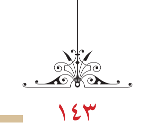
ارجُ الله تعالى الذي ابتليت في سبيله أن يعوضك لا في الآخرة فحسب، بل وفي الدنيا كذلك، بأن ترى ابنتيك هاتين تسعيان نحوك يومًا وقد ارتديتا الحجاب من تلقاء نفسهما استعدادا للخروج معك في مشوار، وقد امتلأتْ عيناهما سرورًا بما فعلتا، وارتسمت على وجهيهما البريئين ابتسامة رضا.. سيكون حينئذ منظر أجمل وأنقى وأبهى وأكثر إشاعة للبهجة في نفسك من أي منظر فقدتَهُ ببعدك عنهما ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٧٠]..

كثيرًا ما نتحسر على نعم نفقدها أو مراحل من حياتنا لا نعيشها كما نتمنى لأننا نعتقد أنها لا تُعوَّض. أحسن الظن بربك يا أخي وارجه أن يعوضك بخير مما فقدت. وتذكر في الوقت ذاته أن هذه الدنيا أهون من أن تحرص على التمتع بكل مباحاتها.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ولَقَابُ قوس أحدكم في الجنة أو موضع قيد - أي: سوط - خير من الدنيا وما فيها))!..

فحسرتنا على فوات متاع دنيوي أكثر من فوات فرص عظيمة للفوز بالجنة.. إن هذه الحسرة دلالة على غفلة منا يجب علينا أن نستحي منها ونسعى إلى تداركها.

إن الحرص على التمتع بكل لحظة من لحظات الدنيا متوقع لا منك أنت أيها المؤمن، بل ممن لا يؤمن بحياة آخرة، فهو يتحسر على ما يفوت منها لأنها كل شيء في نظره.

فَعَلِّقْ نفسك يا أخي بنعم الآخرة، ولا توسوس لك نفسك بأن في الدنيا متعًا تفوت دون أن يكون لها تعويض من جنسها في الآخرة.. ألست



إن دخلت الجنة كان بإمكانك أن تطلب إعادة ما فاتك من نعيم الدنيا؟ بلى ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ [الزمر: ٣٤].. لكن ما أظنك فاعلًا! فإن نعيمًا وصفه العظيم بأنه عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].. سيشغلك عن متاعٍ فاتَ في دنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة!

فلتطِب نفسك بالتضحية في سبيل الله.

ملاحظة: مرت السنوات ولبست أختهما سارة الحجاب من نفسها وهي طفلة، ثم توفيت بخاتمة حسنة والحمد لله.

عجّل أنت بالفرج على نفسك!

إن بداية الحل لمشكلتك والخروج من أزمتك أن تعرف أنها ما أصابتك إلا بذنب منك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]..

لذا فإن الله تعالى يحب منك حينئذ أن تبادر بتصويب أوضاعك وبالعودة إليه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: ٤٢].

إن عامة الناس لا يتفاعلون مع البلاء كما يحب الله تعالى. لذا ترى أن القرآن يصف في مواضع كثيرة جدًّا سوء تفاعل الناس مع البلاء:

- فمنهم من لا يتفاعل ولا يستفيد: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: ٤٣]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٦].. ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [التوبة: ١٢٦].

ومنهم من ييأس ويقنط: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: ٤٩]، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم: ٣٦]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣].



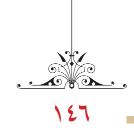
- بل ومنهم من يزداد كفرانًا ! : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم: ٥١].

عجبًا لأمرك أيها الإنسان ! إن هذا التركيز القرآني على ظاهرة سوء التفاعل يستدعي منا وقفة وتأملًا..

إننا قد نمضي أوقاتنا ونحن نتأفف من البلاء ونتمنى لو لم يحل بنا ونتصور سعادتنا لو لم يجر ما جرى، ونتلقَط الأنباء من هنا وهناك بأية بادرة انفراج، ونطرق الأبواب الأرضية ونبالغ في الأخذ بالأسباب المادية للتخلص من البلاء.. إلى حد يصبح فيه التفكير بالبلاء كابوس يقظة ومنامٍ ووسواسًا لا ينفكُ عن أذهاننا.. ولكن هذا كله لا يزيدنا إلا دورانًا في حلقة مفرغة، وستتولد لدينا مصيبة جديدة، هي أننا لم نستفد من البلاء ولم نتفاعل معه كما يحب الله تعالى بأن نصوب أوضاعنا ونعود إليه سبحانه.

قد يكون البلاء ظلمًا وقع عليك، فتمضي الأوقات تغيُّظًا من ظالمك.. لكن من الحكمة أن تدرك أن هذا ما سلط عليك إلا بذنب منك، فما هو إلا أداة لقدر الله تعالى.. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].. فينبغي لك، مع مدافعة هذا الظلم والسعي في تحصيل حقك بكل سبب شرعه الله، أن تسعى أيضًا في التخلص من ذنبك راجيًا أن يكف الله الأذى عنك.

إن نزل بك بلاء فبادر فورًا بكتابة قائمة بأخطائك التي تحتاج إلى تصويب، وابدأ بالتخلص منها وقد وضعت نصب عينيك أن تفعل ذلك



تعظيمًا لحق الله أولًا، ثم لينظر إليك تعالى نظرة رحمة ويرفع عنك البلاء. ولاحظ في تحديد أخطائك أن البلاء قد يكون من جنس المعصية، فمن قصد لذة لا يرتضيها الله فقد يحرم الوجه الحلال منها:

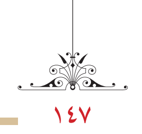
- فإذا ابتُليت مثلًا بمشاكل مع زوجتك ففكر: لعلك أردت ترطيب حياتك بالتهاون في التعامل مع نساء من غير محارمك بممازحتهن أو الحديث معهن خارج حدود الحاجة وغض البصر، فحرمت متعة الوئام الزوجي النقية المباحة.

- إذا ابتُليت بفقد شيء من مالك أو بقلة البركة فيه فتذكر: هل تهاونت بإدخال مال مشبوه إلى مالك؟ هل قصرت في صلة أمك بمال تبهجها وتوسع عليها به؟

- إذا ابتُليت بسجن فتفكر: هل لديك والد مريض محبوس في جسمه لا يستطيع الحراك فما كانت تسري عنه بتنقيله في بيته وخارجه وماكنت تؤانسه بالحديث معه لتذهب عنه الوحشة، فابتليت بوحشة كوحشته؟!

- إذا ابتُليت بفقد وظيفتك فتذكر: لعلك كنت لا تخشع في صلاتك، بل تمضيها وأنت تفكر في وظيفتك ومشاكلها وإرضاء المدير و أنت بين يدي الله تعالى!

- لعلك أيتها الزوجة المبتلاة بزوج لا يراعي حقك.. لعلك رأيته مقصرًا في حق الله فلم تنصحيه ولم تعينيه على إرضاء ربه، فلم يوفقه الله لأداء حقك عليه!



أيها المبتلى! واجه الحقيقة وإن كانت مرة! لابد من ذنب جر عليك البلاء، فحدده وتخلص منه بسرعة، وبذلك تنجح أنت -بإذن الله- في قلب المحنة في دنياك إلى منحة في دينك، وينطبق عليك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحَدٍ إلا للمؤمن).. ويرجى لك حينئذٍ أن يأتيك الفرج، لأنك بعودتك إلى الله قد اتقيته، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢،٣].

أما إن كنت بطيئًا ضعيفًا في تصويب أوضاعك فتذكر حينئذٍ أن المعلم إن رأى من التلميذ بُطئًا في تعلم الدرس فإنه قد يزيد عدد الحصص.. ولله المثل الأعلى.

قد يأتيك الفرج بزوال ما آلمك وأهمك، وقد يأتيك الفرج بأن يبقى البلاء ولكن ترى معية الله لك فيه، وإيناس قلبك بعد وحشة، وثباتًا بعد اهتزاز، ووجوهًا من الخير العظيم في دينك ودنياك خيرًا لك من زوال البلاء.

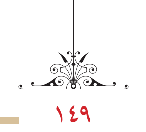
لذا، تذكر وأنت تحدد أخطاءك وتبدأ بعلاجها أنك تريد التخلص منها مدى الحياة بغض النظر انفرج كربك أم لم ينفرج، وإلا لم تكن صادقًا في نية التوبة إلى الله تعالى. قد تكون قاطعًا لأخيك وتبتلى بالفقر، فتتودد إلى الله تعالى وتصل أخاك من جديد.. ومع ذلك قد يبتليك الله باستمرار فقرك واشتداده.. فهل أنت حينئذٍ عائد للقطيعة لأدنى مشكلة جديدة بينكما؟! وهل في هذا دلالة أن توبتك كانت صادقة خالصة لوجه الله تعالى؟

ويا عجبًا لمن لا يغفل عن التوبة عند البلاء فحسب، بل يزداد ارتكابًا



للمحرمات لحل مشكلته! كتاجر يتعرض لخسارة فيقترض قرضًا ربويًّا لينعش تجارته، ولعله يبرر ذلك في نفسه قائلًا: (لقد اضطرني ربي إلى اللجوء لهذا الطريق)!

فهذه أحوال الناس مع البلاء، منهم من يتخذه محطة تنقية وانطلاقة جديدة في حياته، ومنهم من لا يتوب ولا يتذكر، ومنهم من يستجير من الرمضاء بالنار.. فاختر لنفسك.. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣٢]..



مفاتيح التوفيق

أيها الأحبة..

هناك مفهوم يجيب عن تساؤلات كثيرة تخطر ببالنا:

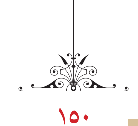
- تصدر منا أحيانًا أفعال نستغرب نحن صدورها منا ولا نعرف كيف فعلناها! وقد تؤثر على حياتنا بشكل كبير ونندم عليها أشد الندم. ما سبب صدور هذه الأفعال وكيف نحمي أنفسنا منها؟
- لماذا تمر بنا أوقات نحس فيها بفراغ القلب وهبوط المعنويات مع كل ما نحفظه من آيات وأحاديث وأقوال السلف وأبيات الشعر والحكم والاستنباطات والمعاني الجميلة؟
- أصحاب البلايا الطويلة، ما الذي يصبرهم؟ نحس أننا لو كنا مكان أحدهم فلن نصبر، كيف يمكن أن نحقق مثل صبرهم؟
- الله تعالى ينسب أي خير يحصل لنا إلى نفسه سبحانه في المواطن كلها، هل هذا لأنه تعالى يريد حفظ حقه فقط، أم أن هناك فائدة تربوية عظيمة لنا في ذلك؟
- لماذا ذمت الشريعة مدحك للآخرين في وجوههم؟ ما خطورة هذا المدح؟ ولماذا كان الصالحون الأبرار يخافون منه؟

جواب هذه الأسئلة كلها هو في كلمتين: التبرؤ والاستمداد..

ماذا تعنيان؟ هذا ما سنجيب عنه بإذن الله في هذه الصفحات..

١. «خلي قدراتك تنفعك»!

لابن القيم كلام سأرويه مع بعض التحوير لتركيز الفكرة. قال رحمه الله ما معناه: (أجمع العارفون بالله على أن التوفيق هو في ألّا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو في أن يكلك إلى نفسك. وقد يجتمع في العبد خذلان



وتوفيق، فيقارن بينهما، ويدرك أن الذي يمسك سماء توفيقه وهدايته أن تقع على أرض خذلانه وضلاله هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ويدرك العبد حينئذٍ حاجته إلى أن يقول في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: ٥،٦].. ويعلم العبد حينئذٍ شدة حاجته إلى التوفيق في كل نَفَس وكل لحظةٍ).

إذن إخواني، التوفيق هو في ألّا يكلك الله إلى نفسك. ما معنى هذا الكلام؟ تصور الحياة واختباراتها كمجموعة من الحفر. أنت قد تُعجب بقدرات نفسك وذكائها لأنك استطعت أن تتجاوز بعض هذه الحفر. تحس أن لديك «قدرات ذاتية» تؤهلك لخوض أية تجربة بنجاح، وتقول:

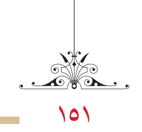
- «أنا لست من النوع الذي يضعف أمام الفتن»
- «أنا لست من النوع الذي يُخدع بسهولة»

ويعزز هذه النظرة مديح الناس لك:

- «فلان أسد»
- «فلان مدرسة في الصبر والثبات»
- «فلان ناجح في كل ما يفعل»

ومثل هذه العبارات من الثناء على جوانب مختلفة من شخصيتك. فتحس لا شعوريًّا بشيء من «الاستقلالية» عن رحمة الله وتوفيقه!: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦].

فيُعَرِّضك الله لِحُفرة، ويدعك تعتمد على قدرات نفسك تلك (خليها تنفعك!)، فتسقط في الحفرة سقوطا مُروّعًا، لأنك وُكلت إلى نفسك. فتعلم أن لا نجاة ولا نجاح لك إلا بتعلقك بحبل الله تعالى، حبل رحمته وتوفيقه.



فتتبرأ من قدراتك، وتستمد التوفيق من الله. وهذا معنى التبرؤ والاستمداد. وتتجنب تمامًا قول: (أنا من النوع) و(لست من النوع)..

بل تُدرك أننا كلنا بلا استثناء «من النوع» الذي لا يساوي قشرة بصلة إن وَكَلنا الله إلى أنفسنا! فكم من معتزٍّ بثباته أمام الشهوات وقع يوما فيما لم يتصور أن يقع فيه مما كان يستقذر فاعليه! وكم من مغترٍّ بذكائه انطلى عليه ما لا ينطلي على بسطاء الناس..

لذا، فإنا ندعوا صباح مساء بالدعاء الثابت عن نبينا صلى الله عليه وسلم: (يا حيُّ يا قيُّومُ برَحمتِكَ أستَغيثُ أصلِح لي شأني كُلَّهُ ولا تَكِلني إلى نَفسي طرفةَ عينٍ).

قد يتساءل أحدنا: (لا أستغني عن توفيق الله طرفة عين؟) يعني بمقدار رمشة عين؟ نعم.. انظروا إخواني إلى أفعال قد لا تستغرق أكثر من رمشة عين، يكلنا الله فيها إلى أنفسنا فيصدر منا أفعال تترك جرحًا عميقًا سائر حياتنا!

- قد تغضب فتقتل برصاصة أو طعنة سكين في طرفة عين، فيترك ذلك أثرًا مدمرًا على حياتك غير ما ينتظرك في آخرتك.
- زوجٌ طلق زوجته طلقتين، وفي طرفة عين يُطَلقها الثالثة فيفترقان بلا عودة ويتشتت الأولاد.
- تنخدع لمحتال فتوقع له على ورقة أو تسلمه مالًا في طرفة عين فتفتقر بعد عز.
- تُغضب أباك أو أخاك أو صديقك بكلمة جارحة تخرج في طرفة عين تنم عن سوءٍ أخفيته في نفسك تجاههم، وما أصعب الترقيع بعد ذلك!



- تقول كلمة فيها استخفاف أو سوء أدب مع الله تعالى تحبط عملك في طرفة عين.
- تكون في موقفٍ مريب في طرفة عين، يراك الناس فيها فتسقط من أعينهم ولا يعودون يتخذونك قدوة.
- سِرٌّ تبوح به في طرفة عين تجر به مصيبة لغيرك وتسلط عليهم بها ظالما.
- تدعو على ولدك في طرفة عين، مخالفا بذلك نهي النبي عن الدعاء على الأبناء، فيقع به مكروه يلازمه في حياته.

وغيرها الكثير.

تصرفات تستغرب أنت وقوعها منك، كأنها إشارات من الله تعالى: أنْ انظر ماذا يكون منك إن وُكلت إلى نفسك وفَتُر حسك بضرورة حاجتك إلى رحمة ربك في كل طرفة عين.

تذكر ذلك لتدعوَ باضطرار ولهفة، لا دعاءً روتينيًّا:
(فلا تكِلني إلى نفسي طرفة عين).

٢. لماذا أشعر أحيانًا بفراغ قلبي وهبوط معنوياتي؟

أحدنا قد يحفظ القرآن والأحاديث المتعلقة بالصبر والرضا والإيجابية وقصصَ الصالحين وأبيات الشعر والحكم والاستنباطات والمعاني الجميلة.. ومع ذلك تأتي أوقات لا ينتفع بأي منها! فيحس بضعف إيمانه، فراغ قلبه، هبوط معنوياته، قلة صبره!

وكأنها تذكير من الله تعالى، أنه حتى هذه الآيات والأحاديث والمعاني



لا تؤثر بنفسها تأثيرًا ذاتيًّا، بل إن شاء الله نزع أثرها فيك وهوت سماء صبرك وانشراحك على أرض ضعفك وخوفك. وإن شاء الله جعل لآيةٍ وقعًا جديدًا في نفسك وأثرًا عظيمًا كأنك تسمعها لأول مرة مع أنك قرأتها قبل ذلك مئات أو آلاف المرات. هي رجَفات تُشعرك باقتراب هوي سمائك لتزداد لجوءًا.

وأرى أن ذلك مما يساعد في فهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة) (مسلم). يُغان بمعنى يتغشى القلب ما يتغشاه، وكأنها عوارض تعرض للنبي (رجفات) ليتذكر أن ثباته وطاقته ليست ذاتية، بل مظهر رحمة ومعية من الله تعالى فيتجدد تَبَصُّره بحاجته إلى ربه سبحانه في كل طرفة عين.

وكذلك صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وصفهم الله في غزوة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ [الأحزاب: ١١].. زلزلة تكشف لهم أنهم -وإن كانوا خير الناس وأقواهم وأثبتهم- فنفوسهم ضعيفة إذا وُكلوا إليها.

لذلك فَلِمَنْ يتساءل: (ماذا أفعل عندما أضعُف؟).. الجواب: اعترف بضعفك وتبرأ من حولك وقوتك، واستغفر الله عن كل لحظة أُعجبت فيها بنفسك وقلت فيها كقول قارون (إنما أوتيته على علم عندي)! واستمدد العزم والقوة من ربك عز وجل.

٣. أصحاب البلايا الطويلة، ما الذي يصبرهم؟

لو أنك كنت مقبلًا على تأثيث بيت وقال لك رجل ثري: (اشترما



شئت ولا تسأل عن الثمن، أنا أسدد الحساب) فستشتري بلا قلق..

كثيرًا ما كنت أتساءل: (كيف يصبر المحبوس لسنوات طويلةٍ مثلًا؟) وأخاف أن أُبتلى بمثل بلواهم، لأني أنظر في نفسي فلا أجد فيها ما يُصَبرها كصبرهم.

ثم أدركتُ أن هؤلاء قوم منَّ الله عليهم بلحظاتٍ عسيرة! زلزلت أركانهم واستخرجت كل ما فيهم من طاقة فلم يجدوها كافية، فتبرؤوا من قوتهم واستمدوا العون من الله، أي أنهم عرفوا المفتاح، وحينئذٍ فهم كهذا الذي يخوض أي غمار ومعه «شيك مفتوح» من غني، ولله المثل الأعلى.

قلَّ قلقي بإدراك ذلك، لأن سقفي من قبلُ كان نفسي، ونفسي محدودة وصبرها محدود. أما المدد من الله فلا حد له ولا عد، وإنما علينا أن نحسن الاستمداد: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، (واستعن بالله ولا تعجز) (رواه مسلم).

انظر إلى ثبات الثابتين وتوفيق الموفَّقين على أنها مظاهر لرحمة الله وقدرته، ولا تنشغل عنها بالإعجاب بشخوصهم وبمدحهم، فإن مدحهم يغرُّهم وينسيهم شيئاً فشيئاً حقيقة أن ما بهم هو محض توفيق من الله..

بدل أن تقول: «ما أصبر فلانًا» عود نفسك أن تقول: «ما أعظم رحمة الله إذ صبَّر فلانًا».

ولذا كان الصالحون الأبرار يخافون أن يُمدحوا في وجوههم، يخافون أن



يبـدوا كالـمُقرين لنسـبة النـاس الفضـل إلى ذواتهـم، فيكلهم الله إلى أنفسـهم فيسـقطون.

كان الرجـل مـن أصحـاب النـبي صلـى الله عليـه وسـلم إذا زُكِّـي قـال: (اللهـم لا تؤاخـذني بمـا يقولـون، واغفـر لي مـا لا يعلمـون) (أخرجه البخاري في الأدب المفرد وقال الألباني إسناده صحيح).

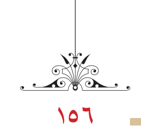
٤. لماذا ينسب الله الفضل إلى نفسه؟ مفاتيح التوفيق

كل خـير يحصـل للعبـاد ينسـب الله الفضـل فيـه دومًـا إلى نفسـه. كقولـه سـبحانه:

- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]..
- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]..
- ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٤﴾ [البقرة: ٦٤]..

فهـل هـذا لتعريـف العبـاد بحقـه سـبحانه فحسـب؟ بـل أحسـب أنـه تعـالى يريينـا أيضًـا بذلـك، فـالله تعـالى غـني عـن العالمـين، لكنـه تعـالى يعطينـا مفاتيـح التوفيـق ويدلنـا علـى مـا ينفعنـا لنسـتمد العـون منـه في كل وقـت وحـين ولا نغـتر بأنفسـنا وقدراتنـا الـتي لـو وُكلنـا إليهـا لضللنـا وخسـرنا ومـا زكـت نفوسـنا.

قـال ابـن القيـم: (فـإذا قـام العبـد بالحـق علـى غـيره وعلـى نفسـه أولا، وكان قيامـه بـالله ولله، لـم يقـم لـه شيء، ولـو كادتـه السـماوات والأرض والجبـال لكفـاه الله مؤنتهـا، وجعـل لـه فرجًـا ومخرجًـا) (إعلام الموقعين).. انظـر قولـه: (وكان قيامـه بـالله)، أي معتمـدًا عليـه وحـده سـبحانه.



في المقابـل، قال ابـن تيميـة في بعـض طوائـف المبتدعـة: (إذا نظـرت إليهـم بعـين القـدَر، والحـيرةُ مسـتوليةٌ عليهـم، والشـيطان مسـتحوذ عليهـم، رحمتَهـم ورفقـتَ عليهـم: أوتـوا ذكاءً ومـا أوتـوا زكاءً (أي طُهـرًا وبركـةً)، وأعطـوا فهومًـا ومـا أعطـوا علومًـا...).

إذا لم يكن مــن الله عــون للفـــتى   فـأول ما يـقـضي عليه اجـــتهاده

فتذكر:
تبرّأْ من حولك وقوّتك،
واستمدّ العون ممن لا حدّ لقُوَّته سبحانه وتعالى.



من يُرزق ولدًا من ذوي الاحتياجات الخاصة

رُزقت شقيقتي ولدًا مصابًا بمتلازمة داون، فتعاملت هي وعائلتها معه تعاملًا مليئاً بالدروس والعبر.. ثم شاء الله أن يُتَوفى الطفل عن ثلاث سنين وثلاثة أشهر. وكنت بعيدًا عنهم مقيد الحرية. فكتبت لشقيقتي وعائلتها الرسالة التالية، والتي أسأل الله أن ينتفع بها كل من يُرزق ولدًا من ذوي الاحتياجات الخاصة، بل وكل مبتلًى:

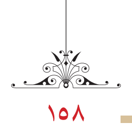
أختي الحبيبة نادية، أخي الحبيب إياد، فادي، يزيد، براء، عمر..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وأعظم الله أجركما في حبيبنا حموده. علمت بالخبر أمس، فجاشت في صدري معانٍ كثيرة أحببت أن أشاطركم إياها وفي ختامها سأزُف لكم بشرى بخصوص حموده.

إياد ونادية، لقد تعلمت منكما درسًا بليغًا مما لا يمكن أن أتعلمه من الكتب: درسًا في الرضا ومحبة قدَر الله تعالى.

لا زلت أذكر يا نادية تلك اللحظة قبل ثلاث سنوات وثلاثة شهور حين زرتك في المستشفى لأبلغك بالتدريج حقيقة أن مولودك الجديد مصاب بمتلازمة داون.. لا زلت أذكر ثباتك وهدوءك وأنتِ متعبة من آثار العملية حين فهمت الأمر فقلت: «خير إن شاء الله» ثم غيرت الموضوع، وكان لسان حالك بعدها يقول: «يا ربِّ إن كنتَ رضيته لي فقد رضيت به».



لا زلت أذكر يا إياد حين سألتني: «هل هذا يعتبر ابتلاءً ولنا عليه أجر إن صبرنا؟» وكأنك كنت تقصد أن مولودك نعمة وإن كانت نعمة غير تامَّة فليس لك أن تتعامل مع الأمر بغير ذلك. فأجبتك: نعم، مرضه ابتلاء ولك على الصبر عليه أجر بإذن الله. فهزَزت رأسك بصمت واتخذت أنت أيضًا قرار الصبر.

لكن ما بدا منكما بعد ذلك أخي وأختي الحبيبين لم يكن صبرًا عاديًا، بل كان أكمل وأعلى.. كان رضًا وصبرًا جميلًا، جميلًا بمعنى الكلمة.

كان من الممكن أن تصبرا على مضض وتقدما لحموده الحد الأدنى من الرعاية الواجبة وتتمنَّيا في قلبيكما أن «تنتهي المعاناة» بوفاته.. ولو كان هذا حالكما لما كنتما آثمَين طالما لا جزع ولا اعتراض ولا تقصير في الرعاية الأساسية. لكنكما أحببتما مولودكما الجديد حبًّا حقيقيًا.

حين علم الله منكما -فيما أحسبكما- رضًا بقضائه، أوجد في قلبيكما مودة ورحمة خاصة لهذا الطفل، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن يتصبّرْ يصبّره اللهُ) أحببتما حموده وتمنَّيتما أن يَعيش.

نادية، لا زلت أذكر مشهد وأنت ترهشين لحركات حموده وكأنني أسمع صوتك وأنت تضحكين له من أعماق قلبك وتقولين: (حمودي.. يا حياتي!)

اشتريت له أجمل الملابس، حرصت على أن يكون (أكثر واحد مشخص) في كل عيد، لم أره يومًا عبر السنوات الثلاثة إلا أنظف وأطيب

رائحة من كل أولاد جيله، نشرت صوره بفخرٍ على الفيسبوك، صممتِ له أجمل فيديو.. كل هذا مع أنك فعليًا حبِستِ مع حموده، فلم تستطيعي الخروج من المنزل للزيارات والدروس والرحلات لتعتني بحموده وتنفسه، وكثير من الأيام ترددين فيها بحموده بين الأطباء والمستشفيات، وتتابعين جلسات تعليم النطق وتحسين الحركة لحموده.

أصبح حموده هو حياتك، واستعنتِ بالله لتكون حياة جميلة.

إياد، لم تكن ترهش كثيرًا لحركات الأطفال في هذا السن، لكنك حفلت بحموده أكثر من غيره.. أنفقت عليه بسخاء دون تردد: عملية القلب، ثم عملية البطارية، ثم نفقات العلاج والتأهيل.. كل هذا بطيب نفس.

وأنتما في ذلك كله تريدان لحموده أن يعيش، أن يكبر، أن يكون أقرب ما يمكن للإنسان السوي، وأن يبقى بيننا.

في حسابات الماديين، "ضاع" الكثير من الوقت والمال والجهد على حموده.. لكن في حسابات أهل الإيمان فإن الوقت والمال والعاطفة من نِعَم اللّه، وحموده أمانة استرعاكما الله عليها، فأنتما سخَّرتما نعمة الله في رعاية أمانة الله عندكما، فَلكم بكل ما بذلتم أجرٌ بإذن الله.

أولادكما نجحوا معكما حين تعاملوا بحفاوة واهتمام مع حموده، خصوصًا براء، الصديق المقرب من حبيب الشعب.

لما أحببتما حموده بصدق أحببناه كلنا بصدق.. لما نظرتما إليه كإنسان مهم نظرنا إليه كلنا كذلك.. ثم لما حزنتما على فقده حزنا كلنا..

لأننا تعلمنا منكم درسًا عمليًّا كنتما لنا فيه جميعًا قدوة.. الدرس أكبر بكثير من حسن التعامل مع الأولاد من ذوي الاحتياجات الخاصة، إنه درس في تحويل الأقدار المؤلمة إلى مظهر رضًا وتسليم ومزرعة حسنات وهو درس يحتاجه كل مبتَلى. لقد رحل حموده، لكن درسه سيبقى.

كان يمكن لعزاء حموده أن يكون فاترًا وأن تُريا فيه مبسوطين مستريحين لانتهاء معاناتكما مع حموده لكن ليس هذا الذي كان.

كم فخرت بك يا نادية حين أخبرني مراد أنك بكيت عند وفاة حموده بشدة، ومع ذلك ما كان لك قولٌ إلا (الحمد لله، الحمد لله) تتصبرين بها.

فخرت بكما إياد ونادية حين عرفت من أمي أن عزاء حموده استمر أيامًا، أكثر مما يُعزى بأي طفل، وأن عزاءه كان مشهودًا حضره خلق كثير..

كأنكما فتحتما بالعزاء للناس مدرسة يتعلمون فيها عمليًا الرضا واحترام الإنسان وتقدير نعمة الله تعالى.

أنا حزين على حموده، ومشتاق له «حبيب الشعب»، لكني سعيد لكما جدًّا، وأريد منكما أن تكونا سعيدين لأنكما، فيما أحسبكما والله حسيبكما، نجحتما في اختبار حموده، فأرجو أنه بينما كانت الطبيبة تكتب شهادة وفاته، كانت الملائكة تسجل نجاحكما، بل تفوقكما، في صفحة اختبار حموده، ثم طويت هذه الصحيفة، وارتفعت إلى الله تعالى مع روح حموده.. وستُنشر لكما هذه الصحيفة يوم القيامة.. أسأل الله أن يُبيض بها وجوهكم ويُثقل موازينكم.



فاشكرا الله كثيرًا على أن وفقكما في هذه التجربة واسألاه تعالى أن يَتقبل منكما.

عزيزَيَّ إياد و نادية، ختامًا، إليكما البشرى:
حموده نرجو أنكم ستلقونه في الجنة بإذن الله تعالى، فهو نفسٌ بشرية، والأنفس تحيا يوم القيامة وتبقى مخلدة، وهو من أطفال المسلمين. لذا، نَعَمْ، نرجو أنكم ستلقونه في الجنة بإذن الله.. لكنه لن يكون فيها مصابًا بمتلازمة داون، بل سيكون كاملًا جميلًا بجمال رضاكما عن قضاء الله حين رزقكما إياه.. لذا، فاحرصا على العمل الصالح ونيل رضا الله تعالى ليُلحقكما به برحمته.

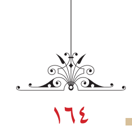
أخـــــــيرًا:
حموده.. رحل من الدنيا قبل أن يتعلم النطق، لكن لسان حاله يقول:
(بابا و ماما، جئتُ في حياتكما لمهمة:
أن أستخرج منكما عبادة الرضا وأرسم معكما قصة صبرٍ جميل..
وأحب أن أقول لكما: أنكما نجحتما في الاختبار.. لذا، فإن مهمتي قد انتهت، وسأرحل الآن..
لكننا سنلتقي بإذن الله.. في الجنة..
محبكم :حموده).

إياد ونادية، أنا فخور بكما، وأحبكما في الله على هذا الدرس العظيم الذي أخجل من نفسي أمامه، وأسأل الله العظيم أن يجمعنا وأحبابنا في الجنة مع حبيب الكل حموده.

محبكم: إياد



الفهرس



تعريف بالمؤلف

- الدكتور إياد عبد الحافظ قنيبي
- دكتور في علم الأدوية الجزيئي، حاصل على الدكتوراه من جامعة هيوستن الأمريكية.
- مارس بحث الدكتوراه في مركز تكساس الطبي.
- مشارك في براءتي اختراع في مجال التئام الجروح وعدد من الأبحاث العلاجية المنشورة في مجالات عدة.
- أحد ثلاث مراجعين أكاديميين لأكثر كتب علم الأدوية انتشارًا في العالم، وهو كتاب

Lippincott Illustrated Reviews: Pharmacology

في الطبعة الثامنة من الكتاب والصادرة عام ٢٠١٨.

- يعمل حاليًا في كلية الصيدلة بجامعة جرش في الأردن.
- تلقى العلوم الشرعية بجهد ذاتي عن عدد من العلماء.
- له محاضرات ومقالات في مجالات متنوعة، مثل بناء الإيمان على أسس منهجية والرد على الشبهات ومناقشات علمية متخصصة في سلسلة بعنوان (رحلة اليقين)، وسلاسل في التأملات القرآنية.